kindle
مكتبة الحبر الإلكتروني
@bookkn
@d110d
أدب جريمة
جريمة العقار ٤٧
رواية
نُهى داوُد
الدار المصرية اللبنانية

kindle
مكتبة الحبر الإلكتروني
@bookkn
@d110d

جريمة العقار 47

نهى داود

رواية

تم تحويل الكتاب الى الصيغة النصية بواسطة:

مكتبة الحبر الإلكتروني

أسعد الكناني

*

أرى أطيافًا...

زوجي يعتبرني مجنونة.

هل تصدقني أنت؟

*

- 1 -

البداية

منذ عدة أشهر، مررتُ بتجربة شديدة الغرابة...

لم أجرؤ على حكيها حينئذ. ولكنني اليوم قررتُ أن أبوح بها لكم لعلي أجد لديكم تفسيرًا مقنعًا لما حدث، أو ربما يجعلها الحكي عنها تكف عن اقتحام أحلامي كل ليلة.

بدأ الأمر صبيحة ثاني أيام عيد الأضحى المبارك حينما استيقظنا على جلبة شديدة، ثم وجدنا على بابنا شرطيًّا ضخم الجثة متجهم الوجه، يستجوبنا بشأن جريمة قتل وحشية وقعت على بعد أمتار من منزلنا، وكان مشهد الدماء من ورائه مروعًا بحق.

لن أنسى ما حييت رائحة الحديد الصدئ الزفرة التي حمّلت الأجواء بثقل غير محتمل.

لا... انتظروا!

هذه لم تكن البداية...

فاكتشافنا للعصا السحرية -التي حلت القضية وكشفت المستور- سبق وقوع الجريمة بعدة أيام.

إذا تحرينا الدقة، فيمكننا اعتبار نقطة البداية هي اللحظة التي خرجتُ فيها من بيتي بوجنة منتفخة ورأس غير متزن بفعل المسكنات القوية التي تعاطيتها لعدة أيام. بهذه الحالة البائسة قدتُ سيارتي متجهة إلى طبيب الأسنان كي ينقذني من آلام ضرس العقل وينهي علاقتنا ببعضنا البعض. تلك العلاقة التي دامت لنيف وثلاثين عامًا وهو قابع في أقصى فمي باستكانة بركان خامد قرر أن يثور ثورته قبل أيام من عيد الأضحى.

كان الطبيب قد نقل نشاطه قبل فترة وجيزة إلى عيادة جديدة.فتحتُ موقعها على تطبيق تحديد المواقع على هاتفي، وأوليتُ مهمة متابعته إلى ابنتي ذات الخمسة عشر ربيعًا التي جلست بجواري في السيارة. وذلك طبعًا بعد أن اعتذر زوجي العزيز عن اصطحابي للطبيب، متعللًا بانشغاله بتسليم ملفات هامة قبل إجازة العيد. العمل أهم من زوجته المتوعكة، حقيقة لا مراء فيها.

تابعتُ طريقي والصوت المعدني الأنثوي يقول في رتابة:

- اتجه لليمين...

أعطيتُ الإشارة وتهيأت للاتجاه يمينًا، حينما شق الأجواء فجأة صوت نهنهة وأنين، ثم اختفى سريعًا كما ظهر!

التفتُّ نحو ابنتي أوبخها:

- ليس هذا وقت مناسب لمشاهدة المسلسل، ركزي في التطبيق.

نظرتها لي، ويدها الخالية من هاتفها، جعلتني أشعر بتأنيب ضمير طفيف سرعان ما تلاشى وأنا أعقد حاجبيّ محاولة تفسير صوت الأنين الذي سمعته. انفرجت أساريري حينما خمنت ما حدث، لقد لقط (البلوتوث) الخاص بالسيارة إشارة جهاز خارجي، ربما لهاتف آخر أو سيارة عابرة بجوارنا.

- في الدوار، اسلك المخرج الثا....

«لا أستطيع تحمل كل هذا الظلم»

اندلعت العبارة الأخيرة في فضاء السيارة بصوت أجشّ مليء بالمرارة طغى على صوت المرأة البارد!

نظرت لابنتي ثانية، فوجدتها ترمقني بدورها، لم أجد بُدًّا من طمأنتها:

- لا تقلقي، هذا ولا ريب مسلسل إذاعي، لقد لقط (البلوتوث) راديو سيارة مجاورة.

- (واريفر)

قالتها ابنتي في لا مبالاة، بلسانها المعووج الذي طالما انتقدته حتى يئست فصمتّ.

كنا قد اقتربنا من عيادة الطبيب، فأوقفت السيارة في أول مكان مناسب للركن وترجلنا منها سويًّا والصوت الأجش لا يفارق خيالي...

ترى من هو الممثل القدير الذي استطاع أن يضع في عبارته كل هذا القدر من القهر واليأس، ومن أي مسلسل أو فيلم؟

قررتُ أن أسأل على جروب الأفلام فور عودتي إلى المنزل.

*

انتهت زيارة الطبيب بعد أعمال ضارية دامت لأكثر من ساعة في فمي المسكين. ركبنا السيارة، وقمنا بتشغيل الـ(GPS)باتجاه المنزل.

بدأ تأثير مخدر الأسنان في الزوال، فشعرت بخدي يتمدد ويمتلئ ككيس رمل ثقيل يزن أضعاف وزنه، كان ذلك حينما دوى صوت كالفحيح بكلمة واحدة:

- سأنتقم.

نظرت لا إراديًّا إلى يميني والتقت عيناي بعيني قائدة السيارة المجاورة لي. وجه أحمر يكاد ينفجر من فرط الغضب بينما شعّت عيناها بتصميم مجنون.

لسبب مجهول، شعرت أنها القائلة!

أشاحت بوجهها وأشحت بوجهي، إلا أنني لم أستطع تفسير يقيني بأن ما سمعته كان صوتها، وبكل وضوح، وبرغم نوافذ السيارتين المغلقتين!

حاولت تنحية هذه الفكرة العجيبة من رأسي، قائلة لنفسي:

- بالتأكيد تأثير المخدر.

لم أستطع الاستسلام فالتفت إلى ابنتي وسألتها بفم فشلت في السيطرة على حركاته فخرجت منه الأحرف مضخمة يملأها الهواء:

- هل سمعتِ شيئًا؟

- قالت سأنتقم.

- من؟

- وما أدراني.

نظرت إليها في ريبة قائلة:

- أليست إحدى ألاعيبك؟

أجابتني بسخط:

- أنا لست بهذه التفاهة.

كبرت ابنتي وأصبحت قادرة على تحميل صوتها بالازدراء اللازم.

أسكتني ردها، وإن بقيتُ محتارة بشأن الصوت الذي سمعت. ومع ذلك اضطررتُ لتنحية حيرتي جانبًا كي أضع القدر اليسير المتبقي من تركيزي -المتضائل بفعل المخدر والألم- في متابعة تعليمات صاحبة الصوت المعدني توجهني ذات اليمين وذات اليسار حتى وصلنا إلى المنزل.

*

أنين خدي كان ملحًّا، وصرخات رأسي للاستلقاء كانت ضارية، إلا أنني اضطررت لإنهاء بعض المهام المنزلية الضرورية قبل أن أتمكن من التمدد في فراشي، محتضنة وسادتي، محدقة في سقف الغرفة، أفكر...

نهنهة وأنين حزين، ثم قهر وظلم، ثم تصميم على الانتقام..

عبارات مختلفة، وأصوات مختلفة، جمع بينها رابط واحد أصيل...

الصدق!

الصدق وكثافة المشاعر التي اكتظت بها تلك العبارات. وكأنما قام أحدهم بحشر تلك المشاعر حشرًا في كلمات معدودة.

غريب...

*

استيقظت صباح اليوم التالي ناسية كل شيء عن العبارات الغامضة.

كان عقلي مشغولًا بتنظيم مهام اليوم ما بين منزلية وخارجية، وملحة وضرورية واستثنائية. حتى إن الأصوات الحائرة لم تجد إلى عقلي سبيلًا.

كان ذلك اليوم هو آخر يوم عمل قبل عطلة العيد، وكانت هناك العديد من المشاوير والمشتريات الواجب إتمامها قبل موعد الغداء على الأقل بساعتين، كي تتسنى لي العودة في الوقت المناسب لعمل (خلطبيطة) سريعة تملأ بطون أبنائي الخاوية على الدوام.

زيارة سريعة للبنك كانت أول مشاويري، وبرغم أني أحفظ الطريق إليه، إلا أنني فضلت تشغيل الـ(GPS)على أمل أن يقترح مسارًا أقصر أو أقل ازدحامًا، فتوفير بضع دقائق في يوم مزدحم كهذا هي قيمة
لا يستهان بها، تستحق أن يضحي المرء من أجلها ببضعة (ميجا بايتس) إضافية.

وبالفعل، اقترح عليّ التطبيق مسارًا جديدًا اتبعته صاغرة...

كنت ممسكة بهاتفي المحمول بيد، وبالأخرى أنعطف يسارًا كما أمرت صاحبة الصوت المعدني، حينما سمعتُ صوتًا رقيقًا يقول:

- رأسي سينفجر من التفكير.

اتسعت عيناي من المفاجأة، سيطرتُ على عجلة القيادة وأتممتُ انعطافي بصعوبة، نيللي لم تكن معي كي أشك في إحدى ألاعيبها الصبيانية، كما أن (بلوتوث) السيارة كان مغلقًا.

تجمّدت الدماء في عروقي...

ما الذي يحدث لي؟

***

- 2 -

أطياف

لم أستطع الاستمرار في القيادة بعد سماع الصوت الأخير، تملكني ارتباك شديد، وفضول أشد!

أوقفتُ سيارتي على يمين الطريق، وتفحصت (البلوتوث) كي أتأكد أنه مفصول وقد كان، ثم تفحصت هاتفي، ربما فتح أحد الأولاد تطبيقًا ما أصدر هذا الصوت، فلم أجد أي تطبيق غريب.

ظللتُ في مكاني بضعة لحظات أفكر، وكلما أمعنت في التفكير، أيقنت أن التفسير الوحيد لما سمعت هو: هلاوس...

انقبض قلبي وأنا أتذكر الماضي القريب، الأيام الكئيبة وزيارات الطبيبة المتكررة، ثم تغييرها لطبيبة أخرى، ثم ثالثة. نظرات فاضل وأقراص الدواء وتقلصات المعدة وضبابية التفكير.

نفضت عني الذكرى سريعًا وأكدتُ لنفسي أن تلك الأصوات ما هي إلا خيالات بسيطة بسبب الإرهاق ومخدر اليوم السابق القوي ومسكنات الألم التي أفرطت في تناولها.

قررتُ حينها أنها تهيؤات لا وقت لدي لها، إذ أدركت وأنا أرمق ساعة السيارة أنني قد تأخرت بالفعل على البنك.

هممت بتشغيل السيارة حينما جلجل حولي صوت رجل منفعل:

- ارحموني، لم أعد أتحمل.

ولكن الأغرب، أنني رأيت ذلك المشهد بوضوح على مقربة مني!

رجل في متوسط العمر، يقف على الرصيف، وأمامه امرأة يشيح لها بيديه في غضب يائس. كان صوته واضحًا جدًّا بداخل السيارة برغم نوافذها المغلقة، ولكن الأغرب على الإطلاق أن فم الرجل كان مغلقًا!

نعم، لم يكن يتكلم... كان الرجل صامتًا تمامًا بينما لسان حاله يقول:

- ارحموني، لم أعد أتحمل.

لقد سمعت حرفيًّا لسان حال الرجل، لا ما نطق به!

خوف مفاجئ اعتراني، لم يعد بوسعي تجاهل ما أسمع.

تساءلتُ في هلع: أي شيء شيطاني يدور حولي؟

أهي أعراض جانبية للدواء الجديد؟ لقد أكدت لي الطبيبة أنه أخف من سابقيه وأنه ليست له أعراض جانبية تذكر!

لم أعد في حالة تسمح بالقيادة، فضلًا عن قضاء المشاوير. فلتتأجل كلها، لن تفنى الكواكب وينهار النظام الشمسي إذا تأجلت مشاوير أسرة فاضل لمدة أسبوع. أمسكت بهاتفي وهممت بالاتصال بزوجي كي أبلغه بقراري، حينما لاحظت شيئًا...

شاشة هاتفي الجديد!

تبًّا للأولاد، ماذا فعلوا بها؟

بقع باهتة من الألوان متناثرة على سطح الشاشة الزجاجية - هل سقط من أحدهما؟ أم طاله الماء؟

- هاتفي الجديـد...

هتفت بها بصوت نائح، فهو لم يكد يتم الشهر معي. سوف أخبر أباهم كي ينالوا عقابهم، ولو أني أعرف أنني لن أنجو من التأنيب واللوم لأنني أنا من تركته لهم. وكأنني مخيّرة في هذا الزمن ومع هؤلاء الحواة الصغار.

ضغطت على زر الاتصال فظهرت صورة زوجي الوسيم سابقًا، والطيب حاليًّا، ولكنها ما كادت تظهر حتى أغلقتُ الخط وأنا أنظر لشاشة الهاتف مشدوهة.

لقد اختفت البقع اللونية!

بعد أن حرقتُ دمي وتوعدت صغاري الأحباء...اختفت البقع!

أكانت هلوسة هي الأخرى؟

قطرات من العرق البارد تجمعت على جبهتي، وأيقنتُ حينها أنني لست بخير...

*

أغمضت عيني وأخذت أنفاسًا عميقة أخرجتها ببطء كما علمتني طبيبتي الأخيرة. انتظمت ضربات قلبي شيئًا فشيئًا ففتحت عينيّ وتفحصت هاتفي من جديد، قلبتُ بين تطبيقاته المختلفة، لأكتشف شيئًا!

البقع اللونية الغريبة التي ظهرت على شاشة الهاتف تظهر مع تطبيق الـ (GPS) فقط، ولا تظهر مع أي تطبيقات أخرى. والأغرب من ذلك، أن تلك البقع ليست ثابتة، بل متحركة، تتحرك بسرعات مختلفة، منها ما يتحرك ببطء وكأنه يهيم على الشاشة، ومنها ما يتحرك بسرعة فيخرج من الشاشة ليدخل غيره.

لم تكن بقع لونية صلدة، بل كانت أقرب إلى أطياف غامضة، تختلف شدة إضاءتها-أو بمعنى أصح كثافتها اللونية -تختلف من طيف لآخر. هناك أطياف ذات ألوان قوية وعميقة، وأخرى باهتة اللون وخفيفة.

أهي تهيؤات؟ هل أصبحت أعصابي بهذه الهشاشة كما يقول فاضل؟

أطفأتُ هاتفي، وأخذت أتمتم ببضع آيات من القرآن الكريم، أتبعتها بالمعوذتين ثم عدة مقاطع من أذكار الصباح. تلك التي أعاهد نفسي كل ليلة على أن أبدأ بها يومي، ثم أنسى. أنهيت تمتماتي، وفتحت عينيّ ببطء.ضغطت على زر تشغيل الهاتف، وانتظرت في صبر حتى أضاءت شاشته، وما إن انتهت الوصلة الموسيقية التي تعلن تشغيله، حتى أسرعت أصابعي لفتح التطبيق إياه...

حدقت في الشاشة، لا شيء... لا شيء على الإطلاق.

تنفست الصعداء..

وقررتُ أن أقلق فيما بعد لما حدث آنفًا، أما حينها فابتهجتُ بأن كل شيء طبيعي.

هنا طالعتني رسالة تطلب فتح (الإنترنت) كي يعمل التطبيق بصورة صحيحة.

بإصبع مرتجف وقلب وجل، ضغطت أيقونة (الموبايل داتا) وانتظرت، انتعش التطبيق، و... ظهرت من جديد الأطياف اللونية تتحرك عليه بأريحية تامة.

وجلست أنا أحدق بها فاغرة فمي...

لاحظتُ أن الأطياف على يمين موقعي تتحرك ببطء شديد مقارنة بتلك التي على يساري، ترى ما الذي يعنيه ذلك؟

وهنا خطر على بالي خاطر!

لِمَ لا تكون تلك الأطياف إصدارًا جديدًا من (جوجل) ولها دلالة منطقية في عالم التكنولوجيا، بحثت على هاتفي فوجدت أن تاريخ الإصدار الموجود عليه يعود إلى شهر مضى، بينما لم أر هذه الأطياف سوى الآن!

ربما هي خدعة من جوجل، فلن أنسى حينما أعلن منذ عدة سنوات عن خاصية الرائحة التي تنبعث من شاشات الحواسب الآلية، أثار ذلك التصريح جنون الناس على مواقع التواصل الاجتماعي قبل أن نكتشف أنها كذبة إبريل من (جوجل) خفيف الدم.

صحيح أننا كنا في منتصف أغسطس لا أول إبريل، ولكن ربما كان لديهم مبرر منطقي كعيد الهلع أو غيره. تفقدت (الفيسبوك) فلم أجد ذكرًا لخدعة الأطياف تلك، بحثت على الإنترنت بعدة كلمات مفتاحية، بل وتفقدت موقع (جوجل) نفسه، وصفحاته على كافة وسائل التواصل الاجتماعي، فلم أجد أي أثر، أو تعليق يشير للأطياف.

أُسقط في يدي، كيف أصل لتفسير منطقي لما أرى؟

اتصلت بابنتي، وقلت لها:

- حبيبتي، افتحي (جوجل مابس) وخذي لقطة لشاشتك وأرسليها لي من فضلك.

- ألا تثقين بي؟ لا تصدقين أنني في النادي مع جنى وتريدين صورة تؤكد موقعي؟ هذا اختراق لخصوصيتي، ولن أقبله.

لم يخطر على بالي هذا الخاطر، ولكنني استسغتُ أن تظن فيّ ابنتي بعض النصاحة والتركيز معها فتصنعت الجدية قائلة:

- من فضلك افعلي ما طلبت، لا وقت لحقوق الإنسان خاصتك الآن، إن كنت في النادي كما تقولين فما الذي يقلقك؟

أنا أثق بها، لكن لذت لي فرصة استفزازها التي أتتني على طبق من فضة.أخذت تبرطم بعبارات غير مفهومة، فشكرتها وأغلقت الخط. بعد لحظات أرسلت لي الصورة المطلوبة، ملحقة برسالة صوتية لم أسمعها.كان اهتمامي منصبًّا على الصورة، فتحتها، فلم أجد أي أطياف! لا أثر للون واحد غريب في تطبيقها!

ظننتُ حينها أن الأمر ربما له علاقة بكون هاتفها (آبل) بينما هاتفي (آندرويد). فخواص تطبيق الـ (GPS) قد تختلف باختلاف نظام التشغيل. لم يسعني إلا الاتصال بلبنى، صديقتي منذ أيام الطفولة والتي تجددت علاقتنا منذ بضعة أشهر حينما التقينا صدفة عند استشاري العلاقات الزوجية، ولكن هذه قصة أخرى لا يتسع المجال لذكرها الآن. المهم، اخترت لبنى لأن هاتفها مماثل لهاتفي تمامًا، طلبت منها ذات الطلب: لقطة لشاشتها، وتجاهلت أسئلتها الفضولية كلها بدعوى الاستعجال. انصاعت لبنى الجدعة وأرسلت لي ما طلبت، فقط كي يهوي قلبي عند قدمي...

الصورة كانت خالية تمامًا من أي أطياف!

كانت تلك هي لحظة الهلع التي أدركتُ فيها أن الأطياف الغامضة لم تجد سوى هاتفي الجديد البائس كي تسكنه.

***

- 3 -

غبية!

بعد الاكتفاء من التحديق في شاشة هاتفي ومراقبة الأطياف المتحركة عليها، قررت أن أترجل من السيارة، وأتمشى على الرصيف، لعلي أفهم أكثر أو يهبط عليّ تفسير ما من السماء.

أغلقتُ السيارة، وأخذت أجوب الرصيف ببطء وأنا أراقب الشاشة. لاحظت اقتراب الأطياف من موقعي على الشاشة كلما اقترب مني شخص ما.

هل تعبر الأطياف عن الأشخاص المحيطين بي؟

قمتُ ببضع تجارب بسيطة كالاقتراب والابتعاد عن أشخاص بعينهم، فوجدت محاكاة لذلك على الشاشة. تأكدت حينها أن الأطياف هي رموز للبشر، ولكنني احترتُ فيما ترمز إليه الألوان...

هل ترمز للجنس؟ كلا، فللأطياف أكثر من لونين. هل ترمز للديانة؟ ولكن ما احتمالية وجود أشخاص يعتنقون أكثر من خمس ديانات مختلفة على رصيف واحد في شارع من شوارع مصر الجديدة!

لا يعقل أيضًا أن ترمز للأعمار، فالشابة التي كانت على يميني كان لها طيف رمادي هادئ مماثل لطيف الرجل العجوز الذي كان أمامي، لم تكن الأطياف ترمز لجنس، ولا دين، ولا سن...

وجدت (كافيه) على مقربة مني، فقررت الاستراحة فيه قليلًا. دخلت من الباب، وبرغم استغراقي في فكرة الأطياف، إلا أن حواسي تمردت علي، واستجابت لرائحة القهوة الطازجة، والمخبوزات الفرنسية الفاخرة. قررتُ طلب مشروب مع قطعة حلوى ولتذهب حميتي الغذائية إلى الجحيم. كنتُ أحتاج لطعام لذيذ يحسن من مزاجي كي أسبر أغوار اللغز بين يدي.

كنتُ أحدق في شاشتي متجهة نحو إحدى الموائد الشاغرة حين سمعت:

- غبية!

اخترقت الكلمة أذني فالتفتُّ نحو النادلة الغاضبة بجواري في ذهول، كانت قد تفادتني بصعوبة وهي تحمل عدة أكواب زجاجية، كان خطئي، ولكنني استغربتُ كيف جرؤت على شتمي علانية هكذا!

حدقتُ فيها غير مصدقة، ولكن وجهها كان صلدًا كأنها لم تتكلم، نظرتُ للجالسين من حولنا، لم يبد على أحدهم سماع ما قالت. كل منهم كان مستغرقًا فيما أمامه، استرقتُ النظر سريعًا إلى شاشة هاتفي فوجدت طيفًا أحمر قويًّا يبتعد عن موقعي بينما غادرتني العاملة ذات الأقراط البلاستيكية الصفراء الكبيرة في صمت.

ابتعدتُ مدهوشة أفكر: هل يعبر لون الطيف عن مشاعر صاحبه؟

وإن كان كذلك... فهل يرمز الأحمر للغضب؟

جلستُ على أقرب مقعد عازمة على اختبار نظريتي بخصوص الأطياف.

مسحت بعيني الموجودين في المقهى من حولي، وقارنتهم بموقعي، كان عدد الجالسين منهم يطابق عدد الأطياف الثابتة على الشاشة، كنتُ على حق بخصوص الشطر الأول من النظرية على الأقل، الأطياف فعلًا ترمز للبشر.

تساءلتُ بخصوص الألوان...

وعلى مقربة مني جلست فتاة بدا على ملامحها الهيام التام، أمامها شاب يتكلم ويضحك، نظرت لموقعهما المفترض على الشاشة، كان لون طيف الفتاة وردي، يتوهج في قوة، بينما طيف الشاب أخضر زاهي. في المائدة التي تليهم، جلست فتاة تنظر إلى مرافقها في هيام أيضًا، بينما هو صامت يعبث في هاتفه، طيفها كانورديًّا، وطيفه كان رماديًّا فاتحًا.

استنتجتُ حينها أن الألوان هي شفرة من نوع ما، وقررتُ أن أدوّن مفتاح تلك الشفرة.

بحثت عبثًا في حقيبتي عن قلم فلم أجد، كنت قد توقفت منذ زمن عن استخدام الورقة والقلم، وأصبحت أنشطتي الكتابية كلها تتم على هاتفي. فتحت تطبيقًا مناسبًا للتدوين وكتبت...

شفرة الأطياف:

وردي: هيام / حب؟

أخضر: سعادة؟ حماس؟

رمادي فاتح: لا شيء؟ ملل؟ صمت؟ وضع اعتيادي؟

كنتُ أحتاج لعدد أكبر من العينات، تذكرتُ لون العاملة الأحمر، اعتبرته يرمز للغضب وأضفته على القائمة.

الغريب في الأمر أنني لم يكن لي طيف على الشاشة مثل الآخرين من حولي، فقط نقطة زرقاء صغيرة تعبر عن موقعي، لا يتغير لونها أبدًا ولا تحيط بها هالة لونية مثل الآخرين. لو كان لي طيف يتغير لونه لسهّل الأمر علي، كنت أدون مشاعري واللون الذي يرمز لكل منها ببساطة. ولكن ليس كل ما يتمناه المرء يدركه.

ذكّرتُ نفسي حينها في سخرية أنني أواجه صعوبة أصلًا في تحديد مشاعري، وهذا هو ما حدا بي لطلب المساعدة في المقام الأول، مشاعري الهائجة الغامضة التي أتعبتني ومن حولي.

نظرتُ صوب مائدة أخرى، جلس حولها أربع سيدات في أواسط العمر. اختلفت ألوان أطيافهن: أصفر، رمادي، أخضر، وأرجواني. حاولت ربط كل منهن بلونها، احتجت لتحريك الهاتف في عدة اتجاهات كي أتأكد أنني أطابق كل سيدة بلونها على الشاشة وقد كان. السيدة البدينة التي ارتدت ملابس مطرزة على الطراز البدوي، كانت تتكلم في حماسة ولونها أخضر، بينما السيدة الصامتة ذات الوجه الطويل الأشبه بوجه الحصان، بدت شاردة وطيفها كان أرجوانيًّا باهتًا، أما التي ارتدت عمامة رأس ضخمة ذات تصميم أفريقي، كانت تستمع وتبتسم ابتسامات مقتضبة من آن لآخر، وتوهج طيفها بالأصفر الفاقع. بينما النحيلة التي لفت حول رأسها خمارًا حريريًّا غير محكم، فكانت ممسكة بهاتفها تتثاءب، وطيفها كان رماديًّا فاتحًا.

الرمادي هو رمز الملل ولا شك، فهذا ما يبدو على ملامحها. والأخضر سعادة أو حماس، ولكن ماذا عن الأصفر والأرجواني؟

احتاج الأمر مني مراقبة حثيثة لتعبيرات وجوههن كي أستشف معنى هذين اللونين، بدأت إحداهن ترمقني بنظرات حادة وكأنها تقول: «خليكي في حالك».

معها حق، لا أحد يحب أن يشعر بأنه مراقب. أخرجتُ نظارتي الشمسية من حقيبتي وارتديتها كي أخفي نظراتي. انشغلتُ بالنظر إلى هاتفي حتى اندمجت النسوة معًا ثانية فأخذت أراقبهن من وراء النظارة. اخترت السيدة ذات الوجه الطويل ولون الطيف الأرجواني، كانت تبدو شاردة في عالم آخر، لا تنظر إليهم ولا تعقّب، أكانت دموع تلك التي رأيتها مترقرقة في عينيها؟ أظنها كانت كذلك، فصاحبة اللباس البدوي قطعت حديثها وأخذت تربت على كتف صديقتها، التي ما أن شعرت بكفها حتى انهارت في البكاء.

استنتجتُ أن الأرجواني يرمز للحزن. نظرتُ إلى الهاتف فوجدت طيفها لا يزال أرجوانيًّا، ولكنه متوهج بشدة، إن كان بالفعل يرمز للحزن فلا ريب أنها كانت حزينة جدًّا جدًّا. أما صاحبة الزي البدوي، فتغير طيفها من الأخضر إلى الأبيض، احترتُ إلام يرمز الأبيض؟ من ملامحها المتعاطفة وطريقة احتضانها ليد صديقتها، خمنت أنه قد يرمز للتعاطف أو للنقاء. أضفت اللونين إلى القائمة.

لم يتبق سوى لون وحيد مجهول على شاشتي: الأصفر. نظرت إلى صاحبة (التربون) الضخم، وجهها لم يكن مريحًا، ملامحها كانت حادة ومشدودة، وبلا تعبير واضح. شعرتُ بأن ملامحها تلك دليل على شخصية تخبئ مشاعرها، وتظهر خلاف ما تبطن. مثل هؤلاء الأشخاص يحتاجون إلى ممارسة سيطرة دائمة على ملامحهم كي لا تشي ما بداخلهم، حتى تصير ملامحهم مشدودة ومتكلفة على الدوام. تماما مثل ملامح سيدة (التربون).

راقبتها لأكثر من عشر دقائق، ولم أصل لشيء. لم تظهر على وجهها سوى ابتسامات قصيرة المدى، ولكن طيفها كان يزداد اصفرارًا كلما تكلمت السيدة البدينة بسعادة، وحينما تكلمت السيدة النحيلة لبعض الوقت، تحول الأصفر إلى رمادي.

وتساءلتُ في فضول متعاظم: إلام يرمز الأصفر؟

قديمًا قالوا أن الورود الصفراء ترمز إلى الغيرة، فهل يرمز إليها الطيف الأصفر كذلك؟

حدثتُ شفرتي بما استنتجت، فأصبحت كالتالي:

وردي: هيام / حب

أخضر: سعادة؟ حماس؟

رمادي فاتح: ملل

أحمر: غضب؟

أرجواني: حزن

أبيض: تعاطف/ نقاء

أصفر: ؟؟

لم أكن أستطيع التأكد من تخميناتي إلا بعد اختبار عدد أكبر من الحالات.

حالات؟ ابتسمتُ شاعرة وكأنني عالمة في مختبري، أجري التجارب على مجموعة من الفئران، وأدون مشاهداتي في الدفتر المعد لذلك. منذ فترة طويلة لم أشعر بحماسة كالتي اعترتني حينها.

ولكن الآن حينما أسترجع تلك الفكرة أشعر بالخجل من نفسي. بالتأكيد كانت وراء كل من تلك النسوة حكاية إنسانية مؤثرة، كيف جرؤت على اختزالها في لون جامد، والتعبير عنها بفأر!

***

- 4 -

باء... بني!

ما كان غريبًا في الأمر، أنني طيلة فترة جلوسي في (الكافيه) لم أسمع أي أصوات من بعدما سمعت سباب العاملة. حيرة جديدة أضيفت على كومة (الحيرات) لدي!

ولكنني سرعان ما نحيتُ كل تلك (الحيرات) حينما وصل ما طلبت: كوب ضخم من القهوة بالحليب تزين أعلاه الكريمة المخفوقة، ومعه حلوى كعكة الجبن المفضلة لدي يغطي سطحها صوص التوت البري اللذيذ الذي تساقط من قمتها على جانبيها في مشهد مُغرٍ. لمستُ الكوب بإصبعي كي أتأكد من سخونته، ثم هممتُ بشربه في تلذذ ليتصاعد صوت فاضل في خلفية رأسي يسمعني بنبرته اللائمة عبارته المعتادة:

- صفاء... هل تعلمين عدد السعرات الحرارية فيم اخترتِ أن تأكلي؟

نحيتُ صوته هو الآخر جانبًا، إن كنت سأدفع ثمن تلك السعرات كوزن زائد ودهون في أردافي، فلأستمتع بها على الأقل.

*

غادرتُ (الكافيه) بمعدة ممتلئة وبال مشغول. أنهيتُ بضعة مشاوير من قائمتي الطويلة كي لا أعود إلى المنزل بلا إنجازات. كنت أتحرك وأتعامل مع الناس والبائعين، وعيناي لا تفارقان شاشة الهاتف، محاولة استكشاف المزيد عن الأطياف الغامضة. في السوق، طلبتُ من بائع الخضر بطاطس، فأعطاني شروة خمسة كيلو، حالفًا بأغلظ الأيمان أنها بطاطس قلي لا طبيخ، صدقت أيمانات البائع المخلصة، وأنا أرمق شاشتي وأتساءل في فضول عن معنى اللون البني الذي تلوّن به طيف البائع حينها.

فيما بعد، حينما عدت إلى المنزل، وقمت بتحمير البطاطس، اكتشفتُ أنها أبعد ما تكون عن بطاطس القلي. كومة بنية بائسة، طرية ومعجنة، متشبثة ببعضها البعض بلا معالم، لا تشبه في

شيء الأصابع الذهبية، ممشوقة القوام، المقرمشة من الخارج، واللينة من الداخل كما يجب أن تكون أي بطاطس قلي تحترم نفسها.

أمام نظرات أبنائي المزدرية، واتهامهم المبطن لي بفشلي حتى في تحمير البطاطس. تذكرت قسم البائع، وتساءلت في غيظ عن معنى لون طيفه البني، بالتأكيد لم يكن يشير إلى مصير البطاطس بعد تحميرها!

*

انشغلتُ في أعمال المنزل، حتى حانت الهدنة اليومية التي أقضيها على فراشي متأملة سقف الغرفة، جلست واحتضنت وسادتي في دعة، ثم تذكرتُ شيئًا فناديت على ابني ذي الأحد عشر عامًا وسألته:

- زيد، هل صليت العصر؟

- نعم يا ماما.

تحرك شيء ما في نفسي، فأمسكت بالهاتف، وفتحت التطبيق إياه. تأكدت أن الأطياف ظاهرة، سألته ثانية:

- ماذا قلت؟

- صليت يا ماما.

تلوّن طيف ابني باللون البني...

لم يكن البني لون البطاطس، كان لون الكذب.

أمسكت نفسي عن زيد وصرفته قائلة:

- راجع نفسك يا حبيبي وتذكر أن الكذب يهدي إلى الفجور...

قاطعني مكملًا:

- والفجور يهدي إلى النار...

قالها في رتابة كمن ملّ التكرار، إلا أنه تسلل إلى الحمام وسمعت صوت الكثير من الماء فاطمأننتُ إلى أن ضميره لا يزال حيًّا...

واصلتُ حملقتي في سقف الغرفة، أفكر...

إن كانت الأطياف تعكس المشاعر والانفعالات، فهل يعتبر الكذب مشاعر؟

تذكرتُ الفيلم الأمريكي الذي شاهدته مؤخرًا، ومشهد الجاسوس الروسي مع جهاز كشف الكذب. لقد خرج الرسم البياني لإجاباته خطًّا أكثر استقامة من بابا الفاتيكان، وبعدها شرح لشريكه كيف تمرّن كثيرًا على التحكّم في انفعالاته كي يجتاز اختبار الجهاز. فالجهاز يعتمد على أن يشعر الشخص الكذاب بالقلق فينعكس شعوره على وظائفه الحيوية التي يقيسها الجهاز مثل ضربات القلب والضغط الدموي ومعدل التنفس والتعرق.

فهل تفعل الأطياف ذلك؟ هل هي مقياس للوظائف الحيوية لصاحبها؟ فتتلون باللون الذي يعكس ما تشير إليه انفعالاته؟

بدا ذلك لي التفسير آنذاك لا بأس به على الإطلاق.

ولكنني تساءلتُ في قرارة نفسي: تطبيق بهذه الإمكانات المتطورة، ألا يجدر به أن يكون مرفقًا بشفرة واضحة للألوان، بدلًا من ترك ذلك لتخميناتي الفاشلة.

أمضيتُ قرابة الساعة أقلب في تطبيق الـ «GPS»باحثة في كل قوائمه وخياراته عن تلك الشفرة المزعومة، ولكنني لم أجد شيئًا. قدري أن أستكشف ألوان الأطياف وأحل شفرتها.

ارتسمت على شفتيّ ابتسامة خبيثة وأنا أتخيل كيف سيكون التطبيق عونًا لي في الكشف عن العديد من المواقف، مع الأولاد، ومع أبيهما أيضًا...

ولاحقًا، حينما عاد زوجي متأخرًا كعادته كل مساء، جلست بجواره متلطفة، وأنا أرمق هاتفي من طرف خفي، ثم سألته:

- أين كنت حتى الآن يا حبيبي؟

- في العمل طبعًا.

انتظرتُ أن يتحول طيفه إلى اللون البني، كي أنقض عليه في شراسة وبيدي الدليل أخيرًا على كذبه. ولكن طيفه ظلّ رماديًّا كما هو، لم يكن يكذب علي.

تنفست الصعداء في سعادة، ثم اختلج في نفسي شيء وأنا أفكر في الرمادي، أدركتُ أن فاضل يشعر بالملل في حضوري، فهل كنت مملة إلى ذلك الحد؟ تغيرت ملامحي وهممت بمواجهته، إلا أن طيفه تحول إلى الأخضر الباهت إثر دخول زيد علينا. لا بأس، لقد نجا، ولكنني طمأنت نفسي بـأن (الجايات) أكثر من (الرايحات)، وأن التطبيق... لا زال في جيبي!

***

- 5 -

كقطة في منتهى الشبع

في ذلك الوقت كنت قد قررت الاحتفاظ بأمر الأطياف لنفسي، فلم أخبر عنها أحدًا. أردتُ أن أجعل من التطبيق سلاحي ودرعي مع الناس في الأيام التالية، وبسبب تلك الفكرة تملكتني حماسة مضاعفة واستخداماته تتوالى في عقلي.

انتظرتُ مستلقية في الفراش بجوار فاضل حتى انتظمت أنفاسه، ثم قمت محمومة أدوّن الاستخدامات العظيمة لخاصية التطبيق. بواسطته سأتأكد إن كانت البطاطس مخصصة للقلي، وإن كان السمك طازجًا، وإن كان الشاحن أصليًّا. سأسأل أم عبده عن مكان ليفة الصحون الحمراء التي تدّعي هي أنها بليت، وأشك أنا أنها قد رمتها بالخطأ. سأسأل زوجي عن بيريهان السكرتيرة التي يقول هو أنها سمجة، وأرى أنا أن هناك استلطافًا ما. وسأسأل أبي المسافر دائمًا من يحب أكثر، أنا أم أخي، وسأسأل نيللي وزيد إن كنت أُمًّا جيدة.

أسئلة كثيرة سأسألها وعيناي على التطبيق مترقبة تحول أطيافهم للون البني. ولكنني لن أسأل السؤال الأهم والأوحد...

لن أسأل فاضل إن كان يحبني، فلا أريد لقلبي أن ينكسر.

أنا أعلم الإجابة جيدًا...

*

غفوتُ وأنا أحلم بالتطبيق، رأيت أطياف الناس كلهم بنية، لون كئيب يليق بالكذب. كانوا جميعًا يكذبون علي، لم أر طيفًا ورديًّا واحدًا من حولي، لم يحبني أحد.

كانت ليلة تعسة، انتهت أخيرًا فقمتُ منها متعرّقة واجمة.رنوت بعينيّ فوجدتُ فاضل واقفًا قبالتي يرمقني باهتمام...

هل رأيتُ في عينيه نظرة حنان؟

تحسست بكفي الفراش باحثة عن هاتفي حتى وجدته، أدخلت البصمة وفتحت التطبيق سريعًا قبل أن يخرج فاضل من الحجرة. نظرت لطيفه، كان ورديًّا...

حقًّا!

سألتُ نفسي في حيرة: هل يحبني فاضل كما يدّعي أحيانًا وأكذبه دومًا؟

قبل أن أحسم الأمر، تحول طيفه إلى الأسود الباهت، إلام يرمز الأسود؟ لون يليق بأسوأ المشاعر، إن لم يكن يرمز للكراهية، فإلام قد يرمز؟

شعرتُ بقبضة باردة تعتصر قلبي، وبدأت دموعي تجري على خدي، لقد كان فاضل يتصنع الحب أمامي، ولكن مشاعره الحقيقية نحوي ظهرت حالما ابتعد.

توقفت دموعي فجأة لفكرة بزغت في رأسي... كيف كان بإمكانه أن يتصنع الحب، أليس التطبيق جديرًا بكشفه؟ أليس هذا ما يفعله؟ يكشف انفعالات الشخص الحقيقية؟

في تلك اللحظة سمعت صوت فاضل يصرخ هادرًا:

- تبًّا لكم.

وجدت طيفه قد تحول من الأسود إلى الأحمر القاني. قمت من الفراش مسرعة ولحقت به في غرفة الجلوس، وجدته ممسكًا بهاتفه والغضب باد على وجهه، سألته مرتعبة:

- ماذا حدث كي تصرخ هكذا؟

- أصرخ؟ أنا لم أفتح فمي.

أجابني وهو يرمقني باندهاش، ثم تحولت نظرته للارتياب وأنا أقول:

- هل تسخر مني؟ لقد سمـ... آآآآ....

بترت عبارتي فجأة، وتذكرت التطبيق وأفعاله فقلت:

- آآ أعني لماذا يبدو عليك الغضب؟

وارى فاضل ارتيابه سريعًا -ارتيابه الذي أعرف مغزاه وأكرهه- وأجابني:

- مدير الشركة أرسل بريدًا إلكترونيًّا للعميل الخطأ، ستكون ورطة كبيرة بسببه، تبًّا له.

أدركتُ أن غضبه لم يكن موجهًا لي... فهل كان الطيف الوردي حقيقيًّا؟

وتلك النظرة التي رأيتها في عينيه؟

هل كانت نظرة حنان حقًّا؟ لا بد أنها كانت كذلك، فالتطبيق
لا يكذب.

انفرجت أساريري واقتربت منه قائلة في سعادة:

- يا حبيبي يا فاضل.

نظر إلي في استعجاب، فدسست رأسي في كتفه، ربت على رأسي بآلية فسرعان ما دفن وجهه في هاتفه ليكتب رسائله الغاضبة للجميع، بينما استمتعتُ أنا بقربه وابتسمت في رضا كقطة في منتهى الشبع...

***

- 6 -

لا يحبني

نهار وقفة عرفة...

كانوا جميعًا ملازمين لي في البيت، وأنا أتحرق شوقًا للانفراد بنفسي كي أستكشف التطبيق وألوان أطيافه، بينما فاضل لا يحب أن أنشغل بهاتفي في وجوده، حتى لو كان هو منشغلًا عني!

الحل الوحيد كان الخروج من المنزل، قلت له إننا بحاجة لخبز بلدي من الفرن.

- اطلبي من المتجر بالهاتف.

- خبزه ليس طازجًا.

ولدهشتي، وإفساد خطتي، قال:

- أنت صائمة، ومشغولة بإعداد الطعام، سأنزل أنا.

اختلستُ نظرة للتطبيق كي أعرف ما غرضه الحقيقي من النزول، هل سيقابل بيريهان على ناصية الشارع مثلًا؟ وجدت طيفه أبيض. ماذا كان الأبيض؟ تعاطف؟ فاضل متعاطف معي؟ أهو آخر الزمان؟ أم أن التطبيق يخرف؟

أجبته:

- لا بأس يا حبيبي، أحتاج لبعض (الرفايع) أيضًا ولا أريد أن أغلبك معي. سأنزل أنا.

استسلم لرغبتي، وسرعان ما غفا على الأريكة أمام التلفاز. تأكدت أن هاتفي مشحون بكل من الرصيد والبطارية، وخرجت من باب الشقة لأجد مدام ميرفت جارتي تهم بدخول شقتها، ابتسمت لي وسلمت علي ثم رمقت طرحتي الجديدة بنظرة مستطلعة وسألتني:

- حلوة طرحتك، جديدة؟

- نعم، اشتريتها (أونلاين).

- غالية؟

تلعثمتُ فأردفت:

- تحبين أنت شراء الغالي، ولكن ذوقك لا بأس به.

لم أفهم أكانت عبارتها مدحًا أم ذمًّا، ولكنني شكرتها على أية حال. دخلَت هي شقتها وأغلقت الباب فنظرتُ إلى هاتفي، كان طيفها أصفر في طريقه للبهتان.

ترى، إلام يرمز الأصفر؟

نزلت الدرج مسرعة، وقبل أن أخرج من باب العمارة، وجدت أمامي الحاجة فوقية جارتنا النشيطة التي قاربت السبعين من عمرها تخرج من شقتها. أردت التهرب منها، فالوقفة معها فيها ساعة على الأقل، ولكنها قفشتني واستوقفتني قائلة بابتهاج:

- صفاء، كم أنا سعيدة لرؤيتك.

أدركتُ أنني وقعت في الفخ، ألقت علي نظرتها المتفحصة وأضافت:

- لقد ازداد وزنك كثيرًا.

كنت أعلم أنها ستسلخني بلسانها الحاد كالمعتاد. تشاغلتُ عنها بالنظر في هاتفي، وجدت طيفها ورديًّا باهتًا، حب؟ لا أصدق، تطبيق كذاب أو على أحسن الحالات يبالغ بشدة.

- لا تغضبي مني حبيبتي أنا أحبك كابنتي، وزيادة الوزن سوف تؤذيكِ.

كابنتها؟ نظرت لطيفها متوقعة أن يتلون بالبني القاتم كبائع البطاطس، ولكنه ظل ورديًّا!

هل يعبث معي هذا التطبيق؟

استمرّت الحاجة فوقية في الكلام، وأنا شاردة في التطبيق وأطيافه.كان صوتها ينساب في خلفية عقلي، هل تحبني فعلًا؟ هل انتقاداتها لي كلما رأتني تندرج تحت بند الحب؟ ربما...

انقطع حديثها فجأة، وتوهج طيفها بالأحمر. نظرت إليها لأجدها محدقة في القطة السمينة التي كانت تبول على (مشاية) بابها النظيفة. طفح وجهها بالغضب. الأحمر للغضب، لقد تأكدت.

اقترَبَت من القطة في بطء، توهج طيفها بالبرتقالي، ركلتها من الخلف ركلة عنيفة لا تليق بسنها، انطلقت القطة تموء وهي تعرج وانشغلت أنا بالبرتقالي؟ إلام يرمز؟ ليس شيئا سارًّا على كل حال.

استأنفت الحاجة حديثها وكأن شيئًا لم يكن:

- وماذا عن استعدادات العيد؟ هل غسلت الستائر ونفضت السجاد ولمعت النجف؟ أم تركت أم عبده تستخف بك مثل كل مرة؟

حتى لو كان طيفها ورديًّا، كلامها يؤذيني، هذا النوع من الحب
لا أريده.

هممتُ بالانسحاب حينما قطع حبل أفكاري صوت ابن الجيران سائلًا:

- هل رأيتم القطة المشمشية؟

وقبل أن أرد أنا، قالت الحاجة بثبات:

- لا يا حبيبي.

وتوهج طيفها بالبني. سيدة خارقة يتغير طيفها كل دقيقة...

لقد تأكدت من دلالة البني والأحمر، وعلى مضض سأقبل الوردي، أما البرتقالي! سأعتبره مؤشرًا عن الإيذاء حتى يجد جديد.

استأذنت من الحاجة وخرجت إلى الشارع. وبعد لحظة حيرة اخترت الوجهة المناسبة لاستكشاف التطبيق، شارع السوق الخلفي حيث يفترش الباعة الجائلون الرصيف، سيكون هناك العديد من

البشر، المواقف، و(الرفايع) أيضًا، كي لا يشك فاضل.

وصلت إلى الشارع وكما توقعت، عشرات البشر، وعلى الأقل دستة من الألوان المختلفة للأطياف ظهرت على شاشة هاتفي، هذا الشارع كنز.

هممتُ بالتمركز في موقع مميز يتيح لي الملاحظة حينما دوى صوت جهوري، يكرر كلمة واحدة باهتياج...

في البداية لم أتبين ما يقال، إلا أنني وجدت أغلب الأطياف على شاشتي قد تحولت إلى الأزرق، وساد الهرج والمرج، وهرع الباعة يجمعون أغراضهم وفَرشاتهم في سرعة، ثم تكررت الكلمة بوضوح:

- بلدياااااااااة...

كست وجوه الباعة ملامح تتأرجح بين الخوف والقلق، وتأرجحت أطيافهم بين الأسود، والأزرق. لقد رأيت الأسود مع فاضل ولم أعرف معناه، ولكن كانت هذه المرة الأولى التي أرى فيها الأزرق النيلي القاتم!

وفي لحظات معدودة انفض الجمع واختفى أغلب الباعة وضاعت فرصتي قبل أن تبدأ. تعكّر مزاجي وقررتُ العودة إلى البيت خاوية الوفاض، أفكر في الأسود والأزرق وما قد يرمزان إليه.

في طريق الرجوع، رأيتُ الأسطى حنفي الميكانيكي يجري في الشارع كالمجنون ممسكًا بقطعة حديد ضخمة في يده، بينما توهج طيفه بالبرتقالي والأحمر بالتبادل. كان يطارد حمادة -صبي الورشة الصغير-حتى يلحق به وأمسكه من قفاه ورفعه في الهواء بيد، والحديدة تتأرجح في اليد الأخرى. تلوى الولد بين يدي الرجل كدودة مصابة بعسر هضم، بينما توهج طيفه بالأزرق القاني، وهنا سمعت صوتًا مزّق طبلة أذني:

- سيقتلني.

لم يفتح حمادة فمه، ولكن الذعر كان باديًا على وجهه، اقتربت منهما محاولة إثناء الأسطى عن ضرب الصبي قائلة:

- ما الذي حدث يا (بشمهندس) حنفي؟

نزلت كلمة (بشمهندس) على قلبه كالبلسم، فانفرجت أساريره، وأنزل حمادة - دون أن يفلته- وقال يشكوه:

- لقد سرق علبة شاي من الورشة.

نظرتُ إلى الطفل لائمة فقال بصوته (المسرسع):

- والله يا أبلة لم أسرق.

تحول طيفه من الأزرق إلى البني، فعقّبتُ قائلة:

- إذا قلت الصدق سيسامحك، أليس كذلك يا بشمهندس؟

بدا أنني أحرجته إذ أمّن على كلامي بصوته الأجش:

- نعم، إذا قال الصدق سأسامحه.

- سامحني يا معلم، لقد نفد التموين من البيت، وأمي لا تستطيع قضاء اليوم بدون شرب الشاي.

- إذن تطلب يا ولد لا تسرق.

نكس الولد برأسه، ظل طيفه أزرق وإن كان أقل توهجًا، بينما توهج طيف الأسطى بالأخضر الزاهي وهو يشكرني قبل أن أبتعد.

تركتهما وأنا مشغولة بالألوان الجديدة، البرتقالي الذي ظهر ثانية، أصبحت متأكدة أنه يرمز لنية أحدهم في الإيذاء، أو ربما الانتقام، هو لون خطر والسلام ولا أحب أن يتوهج به طيف أحد قريبًا مني.

والأزرق يرمز للخوف لا محالة، رأيته للباعة الجائلين عند ظهور البلدية، ورأيته على حمادة.

ولكن إلام يرمز الأسود؟ الكراهية؟ الهلع؟ هذا اللون يحيرني مذ رأيته على طيف فاضل!

هكذا هو زوجي العزيز، كل ما يخصه يحيرني، لا يوجد به شيء سالك، ولا يحبني.

عدتُ إلى البيت خاوية اليدين، حمدت الله أن فاضل كان لا يزال نائمًا، طلبت الخبز و(الرفايع) بالهاتف من المتجر القريب. وانشغلت بإعداد الطعام، كأي زوجة متفانية، غير مدركة الخطر الذي كان يتربص بي من أقرب الناس لي!

***

- 7 -

خطر!

سأعترف لكم...

في تلك المرحلة، كان التطبيق قد استحوذ عليّ تمامًا.

أصبحتُ أتركه مفتوحًا على هاتفي الذي لم أعد أفارقه، فهو إما أمامي أو بجواري، وعيناي لا تنفك تتفقده في كل لحظة.

كنت واقفة أمام الموقد أشوّح الثوم المدقوق في السمن، مترقّبة اللحظة المثالية لإضافة (الكسبرة) حتى أحصل على (التقلية) المضبوطة للملوخية وأنا أدعو الله ألا تفشل مثل كل مرة،
مرددة بإخلاص ما علموني إياه: «الملوخية تتغطى تسودّ، تغلي تسقط».

تركتُ (التقلية) للحظة، ريثما أخرج طاسة الزيت من الفرن تمهيدًا لوضع صينية الرقاق فيه. وضعت الطاسة على الأرض، ورفعت رأسي نحو سطح الموقد، أرنو بنظرة سريعة نحو هاتفي لأجد طيفًا برتقاليًا يقترب مني...

البرتقالي لون الخطر، أتذكرون؟

تسارعت ضربات قلبي والتفتُّ ورائي لأجد فاضلًا يقترب مني ممسكًا بسكين ضخم. شعرت بالهواء ينسحب من رئتيّ وتراجعتُ عن فاضل في سرعة فتعثرتُ في الطاسة وانزلقتُ لأقع أرضًا فوق بحيرة من الزيت اللزج. كان قلبي مرتعبًا وأنا أنظر لفاضل في هلع ونصل السكين يلمع ببريق مخيف، حدق هو إلى منظري البائس وقال:

- هل أفزعتك؟ آسف.

- ....

- هل هذا السكين مناسب لتقطيع البطيخ؟

- ماذا؟

- البطيخ، سيكون مثاليًّا للترطيب على القلب بعد الإفطار، سأقطعه أنا، ولكن بأي سكين؟

بطيخ!

فشلت عبارته البريئة في تهدئة دقات قلبي المتسارعة. أردت بشدة أن أختلس نظرة إلى طيفه، أكان بني اللون؟ ولكن هاتفي كان على سطح المطبخ الرخامي وأنا مفترشة الأرض. أجبته باقتضاب:

- السكين مناسب، ساعدني.

مد يده وانتشلني فقمت والزيت يقطر مني ورسغي الذي كان قد انثنى تحتي يئن. أطفأت النار على (التقلية) المتفحمة، والملوخية التي شبعت غليانًا فسقطت ولا ريب وذهبت لكي أغتسل تمهيدًا لجولة تعسة في تنظيف أرض المطبخ الغارقة في الزيت.

انتهى الإفطار بسلام، ولكن دقات قلبي لم تهدأ، هل كان يعتزم فاضل قتلي؟ ألم يجد طريقة أسهل للتخلص مني؟ لم أعهده بهذا الغباء!

كما أنني لم أختبر سابقًا خطرًا بهذا القرب، ليس قرب المسافة فحسب، وإنما- وهو الأهم - قرب الإنسان.

كنت مرتعبة، ولم أدر ماذا أفعل...

*

دخلت إلى الفراش متعللة بوجع جسدي بسبب الوقعة، أمسكتُ بهاتفي وأخذت أتأمل الأطياف السابحة على سطحه. لقد رأيت طيف فاضل برتقاليًّا وقت السكين، لا شك في ذلك، والبرتقالي يرمز للنية في الإيذاء، فاضل كان يحمل السكين الكبير ويقترب مني، ما هي الاحتمالات إذن لواحد زائد واحد سوى اثنين؟

دخلت عليّ ابنتي ممسكة بهاتفها، جلست على طرف الفراش قائلة بحماس:

- ماما أريد شراء غطاء جديد لهاتفي.

كان طيفها فيروزيًّا، لون جديد، ترى إلام يرمز هو الآخر؟ ثم تحول طيفها إلى البرتقالي... شعرتُ برعب جليدي يزحف على عمودي الفقري، بينما قالت هي في براءة:

- أيهما؟ الأسود أم البنفسجي؟

لم أستطع السيطرة على نفسي فسألتها محمومة:

- نيللي بم تشعرين الآن؟

- ماذا؟

- أجيبيني، هل تخططين لفعل شيء؟

- نعم. شراء غطاء جديد كما قلت لك.

صمتُّ وأنا أحاول التفكير في الإيذاء الممكن تنفيذه باستخدام حافظة هاتف جديدة، إلا أن نيللي أضافت:

- أشعر بالحيرة، اختاري معي.

الحيرة؟ قرّبتُ منها شاشة هاتفي سائلة:

- ما هذا اللون؟

- ذهبي؟ أتريدين مني شراء غطاء هاتف ذهبي؟ يع...

- ذهبي أم برتقالي؟

- ماما أنا محتارة بين الأسود والبنفسجي، ركزي فيما أقول.

لم أستطع التركيز سوى في البرتقالي، سألتها:

- هل أنت متأكدة أنه ذهبي؟

احتارت للحظة، وظل طيفها برتقاليًّا كما هو، ثم أجابت:

- شاشتك ألوانها سيئة، أرسلي الصورة لهاتفي أفضل.

أخذت لقطة لشاشتي وأرسلتها إليها، فتحَتها ومدت لي هاتفها، كان اللون ذهبيًّا فعلًا وليس برتقاليًّا كما كان يظهر على شاشتي، ليتني أخذت صورة لطيف الحاجة فوقية حينما همت بضرب القطة، أو للأسطى حنفي مع حمادة، لكنت الآن قارنت بين اللونين وتأكدت. سألتُ نيللي:

- هل هناك خاصية لتسجيل ما يحدث على شاشة الهاتف طيلة اليوم.

ضيقت عينيها ونظرت لي، ثم سألتني في فضول:

- ماما، ما الموضوع؟ وما هذه الألوان على شاشتك؟ ولم هي مهمة بالنسبة لك؟

برغم عزمي على الاحتفاظ بالسر لنفسي، إلا أنني لم أستطع مقاومة مشاركة شخص ما...

وجدتني أحكي لنيللي كل شيء منذ البداية وحتى النهاية. وقبل أن أنتهي كانت تخطف مني هاتفي وتعبث به، ثم تركته لتعبث بهاتفها وهي تنظر إلي محتارة فيزداد لون طيفها الذهبي توهجًا. وفي النهاية قالت بحسرة:

- يا بختك يا ماما، هذا التطبيق مذهل...

ثم أشرق وجهها وهي تسألني:

- ما رأيك في تبديل الهواتف؟ هاتفي أحدث وأفضل.

- لا طبعًا، تريدين أخذ المغامرة لحسابك؟

- هل نجرب تبادل الشرائح؟ بحيث يعمل التطبيق على شاشتي ذات الألوان الأفضل.

أعجبتني الفكرة، فقمنا بتبديل الشرائح، ولكن الأطياف كانت قد اختفت تمامًا!

***

- 8 -

الوردي... ثانية!

جربنا أنا ونيللي جميع الخيارات على الهاتفين ولكن الأطياف لم تظهر ثانية، لا على هاتفي ولا على هاتفها...

تملكني الغيظ ورحت أردد:

- كانت تعمل، كانت تعمل.

أعدتُ شريحتي إلى هاتفي بأصابع مرتجفة، مخافة ألا تظهر الأطياف ثانية. انتظرتُ لحظات مرت عليّ كالساعات كي يفتح الهاتف، ثم التطبيق، وحينما ظهرت الأطياف على الشاشة أخيرًا، تنفست الصعداء وحمدت الله، كانت لدي خطط عديدة لاستعمالها وخفت أن أفقده قبل أن أنفذها كلها.

عدتُ أسأل ابنتي:

- هل توجد طريقة لتسجيل نشاط الأطياف طيلة اليوم؟ أريد أن أتمكن من الاحتفاظ بها ومقارنتها عند اللزوم.

- هناك تطبيق يمكنه فعل ذلك بالطبع، ولكن المشكلة ستكون في مساحة التخزين على هاتفك، لن تكفي ذاكرته لتسجيل كل هذا.

امتقع وجهي وأنا أسألها:

- ماذا أفعل إذن؟

استخرجت من هاتفها رقاقة صغيرة ثبتتها في هاتفي قائلة:

- سأتنازل لك عن كارت الذاكرة الإضافي الخاص بي، ويمكنك مسح التسجيل كل يومين أو ثلاثة.

احتضنتُها شاكرة فنظرت إلي مدهوشة وخرجت من الغرفة بلا تعقيب.

كنتُ أعلم أن علاقتنا لم تكن على ما يرام الفترة الأخيرة، ربما بسبب عصبيتي الزائدة وإرهاقي، أو ربما بسبب... آآآ... لا بأس. كنتُ أتحسن وهذا هو المهم. عزمتُ حينها أن أستعيد علاقتي الجميلة بها. أنا أحبها ليست فقط لأنها ابنتي ولكنني كنتُ مغرمة بشخصيتها الفريدة المختلفة عني تمام الاختلاف. شعرتُ حينها بشعور مبهم نحو التطبيق والأطياف، ربما وضعهما القدر في طريقنا لكي نتوحد حولهما أنا وابنتي ثانية بعد طول خصام وشجار...

والآن، فلنعد إلى فاضل والسكين؟ لقد كان يسألني عن سكين مناسب للبطيخ، أي أنه كان محتارًا، هل أقنع بذلك؟ هل هناك درجتا لون متقاربتان؟ البرتقالي للإيذاء، والذهبي للحيرة؟

لا مفر من التجربة.

خرجت إلى فاضل ممسكة بزجاجتي طلاء أظافر متقاربتي اللون، جلست بجواره ووضعت هاتفي على الأريكة تحت ناظريّ وسألته:

- فاضل، أي لون يليق على يدي أكثر.

رمقني في استغراب، فكلانا يعلم أن فاضل ليس له أي حس فني. نظرت إليه نظرة جرو صغير متوسّل، فأمسك بالزجاجتين وأخذ ينقل بصره بينهما. نظرتُ لطيفه، كان برتقاليًّا، أقصد ذهبيًّا.

براءة يا فاضل.

حتى حين!

*

هممتُ بالقيام فاتكأت على كف يدي ناسية ما ألمّ بي في واقعة الزيت فاندلع سوط من الألم في رسغي، صرخت متأوهة فانتبه لي فاضل ورأيت في عينيه نظرة ما...

نظرة ارتعش لها قلبي ولكنها خفتت سريعًا قبل أن أتبينها.

نصحني فاضل أن أربط رسغي برباط ضاغط فأومأت له برأسي وحملت هاتفي وعدت إلى فراشي وملاذي.

تذكرتُ الرعشة التي شعرت بها إزاء نظرة فاضل، كانت رعشة لذيذة! حاولتُ استرجاع نظرته، ثم تذكرتُ رفيقي وعصاي السحرية. فتحت برنامج التسجيل الذي ضبطته لي نيللي وشغلته، ورأيت طيف فاضل قبل دقائق...

كان ورديًّا للحظة ثم تحول للأبيض...

ورديًّا! لقد رأيت الوردي مع فاضل مرتين في ذات اليوم...

أكان يحبني حقًّا؟

***

- 9 -

العيد فرحة... جدًّا

كان اليوم التالي هو أول أيام عيد الأضحى المبارك، وفي ذلك اليوم، اكتشفتُ كيف أن التطبيق مفيد فعلًا.

استقبلنا موعد صلاة العيد - كأي أسرة مصرية تقليدية- بالصراخ وتبادل اللوم والتأنيب، كلٌّ يدعي أنه جاهز وأن الآخرين هم المتأخرون وسبب ضياع الصلاة.

كنتُ أربط حجابي أمام المرآة وأنا أرمق شاشة الهاتف كل عدة دقائق مستطلعة كعادتي المستجدة، لقد اعترفت لكم سابقًا أنه كان قد استحوذ عليّ تمامًا، أليس كذلك؟

المهم، وجدت بالقرب من موقعي طيفًا أزرقَ يقترب منه طيف يتوهج بالأحمر والبرتقالي بالتبادل. فككتُ شفرة الألوان سريعًا؛ شخص خائف، يقترب منه آخر غاضب ولديه النية على الإيذاء، انخلع قلبي إذ توقعت أنهما فاضل وزيد!

ولكن قبل أن أتحرك للحيلولة بينهما وجدت فاضل يدخل الحجرة باحثًا عن حذائه!

انتابني التشوش...

ثم أدركتُ بقليل من الحس المساحي أن تلك الأطياف ليست لأشخاص في بيتنا، بل هي أقرب لبيت الجيران، الأستاذ فتحي وزوجته ميرفت وأولادهما سما وعادل. وهنا دوّى صوت مرتعب يصرخ:

- سيقتلني.

ميزت صوت سما على الفور، جريت على باب شقتنا وفتحته وسط دهشة فاضل. أخذت أطرق باب الجيران حتى فتحت ميرفت،

- خير يا صفاء؟

وقفتُ مبهوتة لا أجد ما أقوله، حدّقت بي بانتظار ردي فخرجت عن جمودي:

- كل سنة وأنتم طيبين، هل لديكم سكر؟

هذا ما جادت به علي قريحتي، راجية من كل قلبي أن يكون طرقي على بابهم قد عرقل ما كان سيحدث، وبالفعل، رأيت سما في الخلفية تجري وتغلق عليها باب غرفتها، وسرعان ما ظهر وراءها الأستاذ فتحي في (فانلته) الداخلية، وما أن رآني حتى خرج من كادر رؤيتي عائدًا إلى صالة المنزل. كاد الموقف ينتهي على خير لولا أن لحق بي فاضل وسألني في براءة:

- لماذا تطلبين سكر ولدينا منه عدة أكياس بالداخل؟

- لدينا؟ فعلًا؟

رمقتني ميرفت بنظرات مستريبة، وكذلك فاضل، وعلامات الاستفهام تطفو فوق رأسيهما، ابتسمتُ لهما في بلاهة ثم تراجعت إلى البيت في خجل، فسمعت فاضل يعقّب بصوت هامس:

- لا تؤاخذيها، تعلمين أن أعصابها متعبة...

ثم نظر خلف كتفه ليتأكد أنني ابتعدت، قبل أن يضيف بهمس أشد خفوتًا:

- دواء جديد.

حقًّا يا فاضل!

غلى الدم في عروقي وتوعدته متمتمة لنفسي: طيب...

*

انتهينا من ركعتي العيد، وبصعوبة أقنعنا نيللي وزيد أن شعائر صلاة العيد لم تنته بعد وأن علينا استكمالها بالاستماع لخطبتي العيد القصيرتين المتتاليتين، عدنا بعدهما إلى السيارة. ركبت بجوار فاضل وأنا ضاربة البوز المتين. لم يلحظ بالطبع كعادته، فمددت بوزي شبرًا زائدًا، ولكن لا حياة لمن تنادي...

لم أطق صبرًا، فانتظرت حتى جلس في غرفة المعيشة واقتربت منه قائلة من بين أسناني:

- أعصابي متعبة ها؟ دواء جديد!!

- ماذا؟

- كيف تقول لها ذلك عني؟ لقد أوحيت لميرفت أنني مجنونة أو شيء من هذا القبيل.

ارتبك فاضل وتلعثم وهو يقول:

- لم أقصد هذا المعنى بالطبع، ولكن اعترفي، تصرفك كان غريبًا، تطلبين السكر ولدينا منه الكثير. لم فعلتِ ذلك؟

اغرورقت عيناي بالدموع وأنا أجيبه:

- إنها قصة طويلة، ولكن ذلك لا يبرر أن تخبرها عن تفاصيلنا الدقيقة...

ثم أضفت في غضب:

- ما هي الأمور الأخرى التي قلتها لهم عني؟ ولماذا؟

- لا شيء يا صفاء، لا تبالغي، إنهم جيراننا، وإن حدث لك مكروه هم الأقرب للمساعدة، يجب أن يكون لديهم علم بحالتك.

«حالتي»! موهوب فاضل في اختيار الألفاظ المناسبة...

لم يبد عليه أنه قد شعر بألمي إزاء ما قال، إذ بدأ يبحث عن جهاز التحكم لتشغيل التلفاز. تأكدت من موضعه حيث خبأته تحتي، ثم قلت له في غيظ مبررة له موقفي مع ميرفت:

- ونحن نستعد للصلاة صباحًا، سمعتُ صوت شجار بين الأستاذ فتحي وابنته، فخفت عليها وأردت إنقاذها من بطشه، أنت تعلم مدى تعاطفي مع تلك الفتاة.

- شجار؟ ولكنني لم أسمع شيئًا.

ارتبكتُ للحظة ثم قلت:

- لقد كنت أنت خارج الحجرة، وحائط حجرة نومنا كما تعلم مشترك مع حائط غرفة المعيشة لديهم.

- غباء في التصميم.

- ليس موضوعنا، هل فهمت الآن لم فعلت ما فعلت؟

- نعم.

قالها شاردًا، وهو لا يزال يبحث عن (الريموت) القابع أسفل مني.

دومًا يفضل الشاشة عني...

سألته:

- ترى لم كان يتشاجر معها؟

أجاب بنبرة ملولة:

- سن المراهقة مشاكله كثيرة.

- مسكينة تلك الفتاة، فقدت والدتها وهي لم تتعد الثامنة من عمرها، ولم تكد تنقضي عدة أشهر حتى تزوج الأستاذ فتحي ثانية، وبعد تسعة أشهر بالتمام والكمال رزقا بعادل ليستحوذ على الاهتمام كله، بصفته الأصغر والولد، وبصفته ابن ميرفت أيضًا.لا أنكر أن ميرفت تعامل سما بشكل جيد، أمامي على الأقل، إلا أنني أشعر أنها لا تحبها.

- أصبحتِ طبيبة نفسية الآن تحللين الناس؟

- ألم تلحظ أنت ذلك؟ منذ أن أتى (دولا) إلى الدنيا وهو محط اهتمام ميرفت وفتحي، وقبعت سما في الظل. حتى في الزيارات العائلية والفسح، يتركونها في البيت ويخرجون، كأنها ليست ابنتهم ولا تنتمي لأسرتهم.

- ربما هي من ترفض صحبتهم، سن المراهقة اللعين.

- ربما...

لم أجد ما أضيفه، فتظاهرت بالبحث معه عن (الريموت) وسلمته له وعدت إلى غرفة النوم، على الفراش، أحدق في السقف، وأفكر في التطبيق... صديقي.

تساءلتُ: هل أنقذ التطبيق سما اليوم؟ أم تجدد الشجار ثانية بعد أن ذهبنا؟

تذكرتُ خاصية تسجيل الشاشة التي شغّلتها لي نيللي بالأمس. ثم أدركتُ أن هاتفي كان معي في الصلاة، بالتأكيد بيت الجيران كان خارج مدى التطبيق.

من باب تزجية الوقت، قمتُ بتحديث شفرة ألوان الأطياف ثم رتبتها كألوان الطيف فأصبحت كالتالي:

1. أحمر: غضب
2. برتقالي: نية إيذاء / خطر
3. ذهبي: حيرة
4. أصفر: ؟؟
5. أخضر: سعادة؟
6. فيروزي: ؟؟
7. أزرق: خوف

8. أرجواني: حزن

9. وردي: هيام / حب

10. رمادي فاتح: ملل

11. أبيض: تعاطف/ نقاء

12. بني: كذب (إظهار خلاف ما يبطن)

13. أسود: ؟

ثلاثة عشر لونًا... تساءلتُ إن كان التطبيق يخبئ لي مزيدًا من الألوان، وفي أي المواقف قد تظهر؟

ثم بدأت أفكر في الألوان الثلاثة المجهول معناها بالنسبة لي؛ الأصفر والفيروزي والأسود. الأصفر ظهر مرتين فقط، مرة في (الكافيه)، حينما توهج به طيف صاحبة (التوربون) وهي تستمع إلى حديث صديقتها. والمرة الثانية توهج به طيف ميرفت على السلم وهي ترمق طرحتي الجديدة. أما الفيروزي، فمتى ظهر؟ عصرت مخي حتى تذكرت أنه ظهر مرة واحدة على نيللي ابنتي. والأسود ظهر مرتين كالأصفر، الأولى على فاضل الغامض، والثانية على الباعة الجائلين بالتبادل مع الأزرق النيلي.

ثلاثة ألوان لم يتكرر ظهورها كثيرًا.

تفكرتُ في غيظ: كيف لأي لون أن يتكرر وأنا حبيسة هذا المنزل، ولا يوجد حولي بشر أجري عليهم تجاربي. ثم انتابتني حماسة مفاجئة وأنا أتذكر أننا في المساء سنقوم بزيارة العائلة، فطقوس زوجي في العيد تتضمن التجمع مع عائلته عند خالته. جيد، هذا يعني الاحتكاك بعدد لا بأس به من البشر. فركت يدي وقلت لنفسي في حبور:

- الليلة!

***

- 10 -

تبًّا للغيرة

نظرت في ساعتي لأجد ست ساعات كاملة تفصلنا عن جولة العائلة، لذا خرجت من غرفتي أتفقد الأولاد، مررت بغرفة نيللي فسمعت صوتها:

- جنى، لن تصدقي، (تيلر سويفت) أطلقت أغنية جديدة.

كانت تخاطب صديقتها بصوت ينضح بالبشر، ومن الناحية الأخرى سمعتُ صديقتها تصرخ من فرط الإثارة. لم أكن أعلم من هي تلك الـ(تيلر سويفت) التي تتكلم عنها ابنتي بهذا القدر من الحماسة.

الحماسة؟ نظرت إلى هاتفي الذي لم يعد يفارقني، طيف نيللي توهج بالفيروزي، لون مبهج ومناسب للحماسة. فليكن إذن، الفيروزي للحماس، أضفته إلى القائمة، فتبقى الأصفر والأسود في عداد المجهولين. طمأنت نفسي أنه لا داعي للاستعجال، فالصبر مفتاح الفرج.

اقتربت من غرفة زيد فسمعته يصرخ:

- نحيل، نحيل جدًّا جدًّا ولا أمل.

فتحت باب غرفته لأجده واقفًا أمام المرآة، رافعًا قميصه عن بطنه وصدره الضامرين، وعلى وجهه أمارات البؤس. رآني فأنزل قميصه سريعًا هاتفًا في حنق:

- ماما، كم مرة طلبت منك الطرق على الباب قبل فتحه؟

- هل صرخت الآن؟

- لا.

- لقد قلت: نحيل، نحيل ولا أمل.

امتقع وجه زيد واتسعت عيناه وهو ينظر إلي مستريبًا،

- لم أنطق بهذه الكلمات.

رفعت إصبعي نحوه وأنا أقول في انتصار:

- ولكنك فكرت فيها..

نكس برأسه وهو يقول بخجل وانكسار:

- نعم.

بدد انكساره انتصاري، فاقتربت منه قائلة في خفوت:

- حبيبي جسمك جميل، وبقليل من الرياضة ستبرز عضلاتك وتنتفخ.

- لن أحصل أبدًا على عضلات بطن سداسية مثالية، إنها ليست مكتوبة لأمثالي.

نطقها بمرارة مزقت قلبي. أردت أن أقول له: «فلتذهب إلى الجحيم عضلات البطن السداسية»، ولكن عوضًا عن ذلك قلت:

- حينما تزوجتُ والدك كان أرفع من عود القصب، انظر له الآن، لقد اكتسب ثلاثين كيلو على الأقل.

- ولكنني لا أريدهم في الأربعين من عمري يا ماما، أريدهم الآن، وأنا في الثانية عشرة.

- الحادية عشرة وشهران.

قلتها مصححة فنظر إليّ في يأس. لم أجد ما أقوله، فربتّ على كتفه مواسية، سألني:

- ولكن كيف عرفت ما فكرت فيه؟

اغتصبت ابتسامة وأجبته:

- الأم دومًا تعرف.

خرجت من الحجرة تاركة إياه فريسة لمرآة الحائط. كان طيفه حبيبي يتوهج بالأرجواني الخافت..

ابني حزين، ولا أملك له شيئًا. رفعت يدي نحو السماء وقلت: يا رب ارزقه بعضلات بطن مثالية. ثم بعد لحظة صمت أضفت: هو وفاضل يا رب.

لاحقًا، وأنا في المطبخ أصب الشاي، تفكرت في صوت زيد وكلماته التي لم يقلها.

لِمَ لا أسمع كل ما يدور في رؤوس من حولي؟ لماذا يعمل التطبيق بشكل انتقائي؟

تمنيتُ أن يتغير الأمر كي أعسكر بجوار فاضل وأكشف كل ما يدور في رأسه الغامض.

سأكون أنا (ميل جيبسون) في فيلم what women want لربما أفهم فاضل مرة واحدة في حياتي.

حلم جميل، لكن للأسف التطبيق لا ينقل سوى عبارات محدودة جدًّا، لا يجمع بينها سوى كونها محمّلة بأثقل المشاعر وأكثرها تركيزًا، ترى ما السر وراء ذلك؟

لعل كثافة المشاعر هي التي تعطيها القوة الكافية للانتقال، مثل فكرة التخاطر أو (التيليباثي).

بدا أن التطبيق قد مثّل وسيطًا مناسبًا لانتقال تلك الأفكار من أصحابها إليّ، انتقال وقوده طاقة المشاعر أو كثافتها.

كان هذا هو التفسير المنطقي الوحيد لديّ حينها.

*

وصلنا مبكرين –في سابقة من نوعها- عند طنط سميرة، خالة فاضل الوحيدة. وضعتُ هاتفي بجواري، أضع عليه بصمتي كل عدة دقائق كي تظل شاشته مفتوحة، وأراقب أطياف الناس النابضة على سطحه.

توافد الأقارب وانتظرتُ أنا في صبر لحين انتهائهم من السلامات و«الطيبون» كي أراقب أطيافهم. بشكل ما لم أكن مرتاحة لما أفعل، شعرتُ وكأنني أتجسس على مشاعرهم وأفكارهم التي استأثروا بها لأنفسهم. كنت أعلم أن أمرًا كهذا لا يليق، لكن بصراحة، فضولي كان أقوى مني، ثم إنني لم أسع لهذا التطبيق، هو أتاني بين يدي، من مجنون يرفض الفرصة حين تأتيه؟

في هذه اللحظة دخلت علينا:

داليدا...

حورية البحر وجنية الغابات وملاك الأكوان، بسحرها الفتاك، وعطرها الأخاذ الذي أدار رؤوسنا جميعًا.

داليدا هي زوجة عمرو ابن خالة فاضل، وهي نصف فرنسية ونصف مصرية، لها ملامح فاتنة وعيون زرقاء شفافة، وشعر ذهبي هفهاف، بالإضافة إلى قوام رشيق، وملابس أنيقة تتماشى وأحدث خطوط الموضة.

باختصار، كانت فاتنة وفتاكة!

همست لي سلفتها عبير وهي تتأملها:

- ألم يخبرونا أن التعيس في الحب سعيد في اللعب، ما بال داليدا محظوظة في كل شيء؟ عمرو يهيم بها حبًّا ويدور في فلكها طيلة الوقت، وكذلك كل من تلتقي بهم من الرجال. الأبواب أمامها مفتوحة دومًا، كل المدارس الدولية تطلبها بالاسم، وأجرها عن الدروس الخصوصية تحصل عليه بالدولار واليورو، ولديها ولد وبنت آية في الجمال والأخلاق والتفوق الدراسي والرياضي.

كيف لم تحترق داليدا أمامنا؟

استرقتُ النظر إلى هاتفي، طيف عبير يتوهج بالأصفر الفاقع، ليست هي فقط، بل أكثر نساء القعدة توهج طيفهن بذات اللون وهن يراقبن داليدا من طرف خفي. ولكي أكون صريحة معكم، لو كان لطيفي أن يتوهج، لربما توهج بالأصفر أيضًا. هل عرفتم إلام يرمز الأصفر؟

الغيرة ولا شيء سواها.

أما أطياف الرجال، فتراوحت بين الأخضر والوردي. طبيعي، فحيثما تحل داليدا يحل على الرجال إما السعادة وإما الهيام، لا ثالث لهما.

بحثتُ عن فاضل، أردت بشدة أن أرى طيفه في حضور داليدا، وجدته في الشرفة مع خاله القبطان المتقاعد. تلوّن طيف زوجي بالرمادي الباهت، بينما توهج طيف خاله بالفيروزي وهو يحكي للمرة الألف وبذات حماس المرة الأولى كيف نجا بسفينته من العاصفة الشديدة في منتصف الثمانينيات. يا حبيبي يا فاضل، الملل يقتله، لو قُدر له أن يكون بجوار داليدا الآن لانقشع الرمادي على الفور...

بعد قليل استأذنَت داليدا في الرحيل لارتباطها باجتماع عمل عبر برنامج (زووم) مع إدارة مدرستها الدولية بالخارج.

ومع رحيلها، عادت أطياف الرجال جميعًا إلى الرمادي الباهت عدا عمرو زوجها، تلوّن طيفه بالأسود. كانت هذه فرصتي لاستكشاف اللون الأسود، لم أستطع كبح فضولي فسألته:

- بم تشعر الآن؟

أجابني في تلقائية:

- بالقلق، تأخر الوقت ونحن كما تعلمين نسكن في منطقة جديدة على أطراف التجمع، وداليدا لا تجيد القيادة ليلًا.

قبل أن أرد قالت عبير:

- لا تقلق يا عمرو، داليدا محظوظة، لن يصيبها شيء.

وتوهج طيفها بالأصفر... أكثر...

ابتسم عمرو ربع ابتسامة وهو لا يدري أتُعتبر عبارة عبير مجاملة لزوجته أم غير ذلك.

أما أنا، فقد حل إحباط مفاجئ على قلبي فأظلمه...

يفترض بهذا اللقاء أن يكون جلسة عائلية متحابة، فإذ به يتحول في عيني إلى جلسة متخمة بالأصفر والرمادي. شعرت بالنقمة على التطبيق الذي كشف لي المستور في نفوس الناس، لأفيق على أحبائي وقد أكلت الغيرة قلوبهم، أو الملل!

وهكذا، وفي لحظة جنون قررت التخلص من نافذة التلصص الملعونة تلك.

فتحتُ هاتفي كي أحذف التطبيق، فطالعني طيف عمرو الأسود، الأسود كان اللون الوحيد الباقي بلا معنى في مفتاح شفرة الألوان بعد أن تأكدت من الأصفر، فهل يرمز الأسود للقلق حقًّا؟ كان هذا رد عمرو، ويتوافق مع الشعور المتوقع للباعة الجائلين إثر هجوم البلدية. وكذلك فاضل، حينما تلقى مكالمة العمل المزعجة.

اعتبرته كذلك، وبذلك اكتملت شفرتي لألوان الأطياف. ولكن ما يهمني بها؟ لن أحتاج إليها بعدما قررت حذف التطبيق. ضغطت على أيقونته ضغطة طويلة فظهرت بجوارها سلة المهملات، هممت بحذفه حينما منعني هاتف ما.

أردت اختلاس نظرة واحدة أخيرة...

وقد كانت النظرة!

***

- 11 -

هتك عرض

فتحت شاشة التطبيق لأختلس نظرة أخيرة قبل حذفه، لأجد أمامي طيفًا يتوهج بالبرتقالي الفاقع!

البرتقالي...

ذلك اللون اللعين الذي يرمز للخطر.

تسارعت دقات قلبي وأنا أتلفت باحثة عن صاحب ذلك الطيف، تفرست في وجوه من حولي، كانوا جميعًا منخرطين في أحاديث هادئة، لا تبدو على أي منهم دلائل الرغبة في الإيذاء أو الانتقام. نظرتُ للتطبيق، وأدركت أن صاحب الطيف البرتقالي لم يكن معنا بالغرفة، كانت تفصله عنا بضعة أمتار.

حاولت تخمين موقعه، وبحسابات مساحية سريعة -أتقنتها مذ تعرفت على خاصية الأطياف- حددت موقعين محتملين... إما المطبخ وإما دورة المياه المجاورة له.

بدأت أنفاسي تتسارع وأنا أهم بالتوجه نحو المطبخ، ثم تذكرت شيئًا كبحني، أرسلت الصورة إلى هاتف نيللي التي كانت ترغي مع بنات العائلة في إحدى غرف المنزل، واتصلت بها:

- نيللي، أرسلت لك صورة، بسرعة، ذهبي أم برتقالي؟

- فتحتها، برتقالي يا ماما.

- متأكدة؟

توتر صوتها:

- نعم يا ماما، ما الأمر؟

أنهيتُ المكالمة دون أن أجيبها وتوجهت مسرعة إلى المطبخ. كان شاغرًا، نظرتُ إلى الهاتف، الطيف البرتقالي كان في دورة المياه، وبجواره طيف بني، شخص يكذب والآخر يضمر له الشر والإيذاء.

اقتربت من الباب فسمعت صوتًا خافتًا كالفحيح يتوعد:

- إن لم تطاوعني سأقتلع عينيك.

لم أستطع تمييز الصوت فتصاعدت ضربات قلبي أكثر وتملكني الذعر، ما الذي يحدث بداخل الحمام؟

سمعت صوت لهاث تبعته زمجرة طفل صغير لا يقوى على الاعتراض.

لم أجد سوى احتمال وحيد بائس لما يحدث بالداخل...

وتذكرتُ عشرات القصص التي قرأتها عن التحرش الجنسي الذي قد يحدث داخل الأسرة الواحدة، وكيف اعتبرتها حينها مبالغة ووحي خيال من كتبها. الآن أنا مطالبة بتصديق أن هذا يحدث في أسرة فاضل، زوجي.

امتلأت عيوني بالدموع وأنا أشعر بالعجز. هل أصرخ؟ هل أقتحم الحمام؟ هل أنادي على فاضل؟ هل سيتهمونني بإثارة فضيحة في أسرتهم المحترمة؟ أم سيشكرونني على إنقاذ ضحية محتملة.

عشرات الاحتمالات والحسابات انهالت على رأسي. وقبل أن أحسم أمري، تصاعد بكاء طفل من الداخل، طفل لم يستطع حبس صوته أكثر فانهار. كانت هذه القشة التي دفعتني نحو التصرف، لم أتمالك نفسي ووجدتني أطرق باب الحمام بشدة...

تعالى صوت حاد من الداخل يقول في نفاد صبر:

- اصبروا عليّ قليلًا، ميدو يصر أنه غير مزنوق، وأنا متأكدة أنه يكذب كي يستمر باللعب، والله لو لم يقضِ حاجته في غضون دقيقة لأضربنه على مؤخرته حتى تحمرّ، هل تسمعني يا ميدو؟

ميدو!

حاجته؟

مؤخرته...

كادت تفلت مني صرخة انهيار بعد أن تشنجت كل عضلة في جسدي إزاء ذلك الموقف.

تبًّا للتطبيق اللعين الذي كاد قلبي أن يتوقف بسببه من فرط القلق والتوتر وأنا أتخيل مشهدًا مقززًا لشخص من العائلة يهم بهتك عرض طفل من ذات العائلة في حمام بيت طنط سميرة.

أقسمتُ أني لن أنظر إلى التطبيق حتى نهاية اليوم، كفاني ما حدث، آن الأوان كي أتحرر من قبضته وأستمتع بقضاء بعض الوقت دون تلك الأطياف الجهنمية.

أعقبتُ قراري بالفعل، فصلت الإنترنت عن هاتفي فتوقفت الأطياف عن الحركة وبدأت تبهت ويخفت لونها تدريجيًّا حتى اختفت تمامًا.

انخرطت مع الموجودين في الأحاديث الدائرة عن التعليم وفشله، والخضراوات وأسعارها، والمسلسل التركي وأحداثه، والكباري وكثرتها... عبارات طويلة ممطوطة متراصة إلى جوار بعضها البعض مكونة ثرثرة مملة مترهلة لا تفضي إلى شيء.

شعرتُ بالفراغ واشتقت للتطبيق، كان يسليني ويحقق لي قدرًا
لا بأس به من الإثارة في زمن الملل.

بدأت يدي تأكلني لتشغيله حينما اقتربت مني نيللي هامسة:

- ماما، أريد هاتفك.

- خير؟

- لا شيء.

مدت يدها وأخذت هاتفي وابتعدت تاركة الفضول ينهشني، ثم عادت بعد لحظة بعينين تقدحان شررًا، وقالت من بين أسنانها في غيظ:

- ماما، الإنترنت مقفول.

- طيب؟

- أضعتِ عليّ فرصة ذهبية لكشف كذب لمى.

ظهرت على وجهي نظرة بلهاء تعرفها ابنتي جيدًا، بل يعرفونها جميعًا. فأنا لا أفهم الأشياء سريعًا مثل الآخرين.أوضحَت لي في نفاد صبر:

- لمى حكت لي حكاية لا يمكن تصديقها، أردت التأكد من التطبيق، توقعت أن يظهر طيفها بني اللون في التسجيل، ولقد وجدت التسجيل بالفعل حتى اللحظة التي بدأت فيها حكايتها، ثم انقطع بسبب أنك فصلتِ الإنترنت. لو سمحتي يا ماما لا تفعلي ذلك ثانية، التطبيق وتسجيلاته ستساعدنا في كشف العديد من الكذبات حولنا.

أومأت لها برأسي في صمت، فابتعدت حاملة معها حنقها وهاتفي.

بدا لي أن نيللي أدمنت التطبيق مثلي، ولم أدر ماذا أفعل؟

ظننت التطبيق مفيدًا، لكنه لم يتسبب لي سوى في القلق والشكوك.

أوقف سيل أفكاري صوت طنط سميرة التي نادت بصوتها الضعيف على السيدة التي تساعدها في البيت قائلة:

- أم محمود، أم علي.

في البداية لم أفهم، أهي أم محمود أم هي أم علي، أم هي أم لمحمود وعلي معًا، أم هما امرأتان لا واحدة؟

ولكن حينما أتت السيدة بالطواجن الفخارية الممتلئة فهمت المقصود، وراقبت في سعادة أم محمود وهي تغرف من الطواجن في الأطباق البيضاء الصغيرة المذهبة الحواف.

أم علي من أصناف الحلويات المفضلة لدي، اخترت أكثر الأطباق امتلاء، واتسعت ابتسامتي وأنا أنظر للملعقة العامرة قبل أن أضعها في فمي بتلذذ.

ولكن... لم تكن هي أم علي المعهودة، بل كانت صنفًا غريبًا مائعًا لا يمت للسيدة أم علي بأية صلة، ولو علمت السيدة أن هذا الصنف قد ألحق باسمها لتقلبت في تربتها متألمة.

سألتنا طنط سميرة بصوت عال:

- ها ما رأيكم؟ لقد استخدمت الفطير الذي يأتيني من البلد، أضعه في الفريزر من العام للعام.

حسنًا هذا يفسر الطعم (الزنخ) الذي تنضح به.

- أعجبتكم؟

توالت عليها عبارات الثناء والاستحسان، أما أنا فابتسمت بفمي المملوء غير قادرة على بلع ما فيه ولا بصقه بالطبع. اختلستُ نظرة للتطبيق بعد أن سحبته من نيللي فوجدت طيف جميع الشاكرين يتوهج باللون البني، هذا هو التفسير المنطقي الوحيد لثنائهم.

كاذبون لا أستثني منا أحدًا...

حمدت الله أن طنط سميرة ليست لديها تطبيق يكشفنا.

*

اقترب مني فاضل سائلًا:

- ألم يحن الوقت للرحيل؟

هممت بالرد عليه، حينما اندلع صوت ما يهتف في عصبية:

- أين هاتفي؟ لا أجده.

كان ذلك ياسين ابن عبير الكبير، قالت له والدته وهي تفتح هاتفها:

- سأرن عليه.

ثم أضافت بعد لحظة:

- غريبة، إنه مغلق.

تعالى صوت ياسين صارخًا:

- ماذا تعنين، لقد كان مشحونًا، جربي ثانية.

بعد العديد من التجارب، ظلت النتيجة كما هي: هاتف ياسين مغلق ومختفٍ، وهو يرغد ويزبد ويتوعد. حل التوتر والوجوم على الوجوه، فقالت طنط سميرة مغالبة التعب البادي عليها:

- ياسين لا تقلق، لا يوجد أحد غريب، بالتأكيد وقع منك هنا أو هناك، سنبحث عنه ونجده إن شاء الله.

رد ياسين في عنف:

- بل يوجد شخص غريب.

وأشار بطرف خفي نحو المطبخ مردفًا:

- تلك السيدة ذات الجلباب الفلاحي التي أتت بأم علي. لقد جعلتيها تدخل علينا وتحوم حولنا.

شهقت طنط سميرة،

- أم محمود؟ لا يمكن، هي تخدمني منذ سنوات.

قرّب ياسين رأسه من والدته قائلًا في خفوت:

- وتسرقها منذ سنوات، ولكنني لن أسمح لها باستغفالي مثلها.

ثم أردف بصوت مسموع:

- لا يوجد غيرها. من فضلك يا طنط ناديها وفتشيها أمامنا.

امتقع وجه طنط سميرة حينما رأت وجه السيدة الشاحب يطل علينا من المطبخ.

كان الموقف محتدمًا ينذر بالعواصف حينما اقتربت مني نيللي قائلة:

- ماما انظري.

قربت مني هاتفي، كان سطحه مليئًا بالأطياف السوداء. طبيعي أن يحل التوتر على الجميع، ولكن نيللي أشارت نحو طيف مختلف، ينبض بالأزرق النيلي، ثم همست في أذني:

- هذا زيد يا ماما.

نظرتُ إليها في غضب، ماذا تقصد؟ أتتهم أخيها بالسرقة؟ فهمت نيللي ما خطر لي فاستدركت:

- أظنه خبأه فقط، لقد كان ياسين يسخر من نحوله طيلة الأمسية حتى إنه قام بتصويره دون علمه صورًا مضحكة، وقال إنه سينشرها على صفحة المدرسة، انظري.

قامت بفتح برنامج التسجيل وتشغيله على سرعة أعلى بعد إعادته ربع ساعة إلى الوراء، وأشارت نحو طيف زيد المفترض، كان أحمر ثم تحول إلى البرتقالي ثم الأسود ثم الأزرق.

إن جاز لي أن أخمن من الألوان، فإن زيد قد غضب بشدة مما فعله ياسين، وقرر أن يؤذيه، فأغلق هاتفه وخبأه، ثم شعر بتوتر شديد بعدها، ثم بالخوف حينما انكشف الأمر، ولكن الآن تحول طيفه إلى لون جديد...

لون لم أره من قبل...

ما هذه الحيرة يا ربي؟

***

- 12 -

اللون الرابع عشر

كان طيف زيد قد اصطبغ بلون أخضر قاتم، أخضر زيتوني، مختلف تمامًا عن أخضر الفرح الزاهي. اختلج قلبي في صدري، أخذتُ هاتفي من نيللي واقتربت من زيد هامسة:

- حبيبي، أعلم أنك خبأت الهاتف.

انتفض نافيًا:

- كلا، لم أفعل شيئًا.

تحول طيفه إلى البني فتأكدت.

- حبيبي لا تقلق، ماما هنا لحمايتك لا معاقبتك، إن لم يجدوا الهاتف، ستُتَّهم أم محمود بسرقته، أيرضيك؟

امتقع وجهه، وتحول طيفه لذات الأخضر الزيتوني، فشجعته:

- قل لي مكانه وسأتدبر الموقف بحيث لا يُتّهم أحد.

نظر زيد في عيني، أخذ طيفه يتوهج بالتبادل بين الأزرق والأسود، أظنه رأى في عيني ما طمأنه إذ استسلم وهمس في أذني معترفًا:

- أسفل وسادة المقعد التي تجلس عليها طنط سميرة.

أسقط في يدي واتسعت عيناي وأنا أرمق كرسي طنط سميرة المتحرك الذي كانت تجلس عليه مستقرة كبيضة ديناصور سرمدية. كيف لي أن أزحزحها عن كرسيها؟ ثم كيف وضعه زيد هناك في المقام الأول؟

استرجاع الهاتف من هذا المكان كان يحتاج لخطة ذكية، ناديت نيللي وهمست لها بمكان الهاتف وكلفتها بإحضاره. حدقت في وجهي مغتاظة فابتسمتُ لها ببراءة ثم أشحت بوجهي قبل أن تقول المزيد.

ذهبت نيللي ووقفت جوار طنط سميرة للحظة ثم مالت عليها وأسرّت لها بكلمات ما في أذنها، فانتفضت طنط سميرة تحاول الوقوف رغم تعبها البادي مستندة على من حولها وهي تهتف:

- برغوث؟ أين؟

بللت نيللي طرف إصبعها بلسانها ثم مدته إلى ظهر الكرسي وهي تقول في ثقة:

- لقد اصطدته، انتظري سأضبط لك الوسادة، ها هي، تفضلي.

جلست طنط سميرة ثانية وهي تلهج بالدعاء لابنتي التي أنقذتها من البرغوث الشرير مصاص الدماء.

حاولتُ مداراة ابتسامة الفخر التي كست وجهي لما فعلته نيللي، وانتظرتُ أن يظهر هاتف ياسين، ولكن لم يحدث شيء من ذلك بل هتف الشاب الصغير في حنق:

- هل انتهيتم من البرغوث؟ نعود لهاتفي؟

ثم نظر لطنط وأضاف في تحدٍّ:

- ها، ماذا ستفعلين يا طنط؟

وهنا وجدت فاضل يرفع يده بالهاتف المنشود وهو يقول في دهشة:

- لقد كان تحتي، لا أعرف من أين جاء. تفضل يا بني.

مد ياسين يده وأخذ هاتفه في لهفة بينما عقبت طنط سميرة بصوت غاضب مرتعش:

- ظلمت أم محمود يا ولد وأنت تائه عن هاتفك أين تركته، هذا لا يصح أبدًا.

التف كل من أبي ياسين وأمه حول طنط سميرة يطيبان خاطرها، ثم اقترب الأب من المطبخ ووضع يده في جيبه ثم مدها إلى أم محمود (مراضيًا)، وانتهى الموقف على خير.

نظرتُ إلى نيللي ثم إلى زيد وتنفستُ الصعداء، لقد حُلّت المسألة والكل مرضيّ، اقتربتُ من فاضل قائلة:

- هيا بنا، حالًا.

رمقني في دهشة، عادة هو الذي يطلب الرحيل مبكرًا، لكن أحداث الليلة كانت أكثر إثارة مما أحتمل، لا أنكر أن التطبيق كان له فضل علينا في اللحظات الأخيرة برغم ما أفسده من الأمسية. إلا أن أعصابي كانت على المحك.

انتهينا سريعًا من طقوس الوداع ونزلنا إلى السيارة، كنتُ منشغلة بما فعله زيد، أردتُ أن أتكلم معه، أن نجد طرقًا للتحكم في غضبه تحول بينه وبين الوقوع في مشاكل غير محسوبة العواقب بهذا الشكل. فكرتُ في تأجيل الحديث إلى اليوم التالي فكلنا متعبون، ثم قررتُ الطرق على الحديد وهو ساخن. جعلتُ نيللي تجلس بجوار أبيها في السيارة، وجلستُ أنا بجوار زيد، فتحتُ هاتفي وقد عزمت أن أجعله مرشدي لمشاعر زيد. سألته:

- هل أنت راضٍ عما حدث؟

تهرب من النظر إلي، وتحول طيفه إلى اللون الأخضر الزيتوني، اللون الرابع عشر الذي لم أكن أعرف معناه بعد، أعدت سؤاله:

- أجبني يا بني.

أشاح بوجهه ولم يعقب، ولكنني شعرت به يجز على أسنانه، مددت ذراعي حول كتفه وضممته إلي، تمنّع للحظة ثم انهارت كافة دفاعاته فجأة فاحتضنني بشدة وانفجر يحكي لي وسط دموعه ومخاطه كيف أن ضميره كان يؤنبه بشدة نحو أم محمود ونحونا جميعًا، وأنه لم يقصد الإضرار بأحد، ولكنه لم يستطع السيطرة على غضبه وألمه مما فعله ياسين، كانت رغبة لحظية في الانتقام لم يستطع مقاومتها.

لم يفتأ فاضل يرمقنا عبر مرآة السيارة في فضول وقلق بينما زيد يفضي ما في جوفه، تكلمنا عن مشاعره، والأفكار التي وراءها، وكيفية إدارتها وتصحيحها، تكلمنا طويلًا حتى إنه نام بين ذراعي وهو يشهق... حبيبي.

*

وصلنا إلى البيت بعد قرابة الساعة في الطريق، هززت زيدًا كي يستيقظ، كان لا يزال ينتفض، رأيتُ أمامنا مشوارًا طويلًا في تعلم إدارة الغضب والسيطرة عليه، لقد ورث العصبية مني، وسنخوض هذا الطريق معًا.

إنه ولد طيب. وفي هذا العالم... غالبًا ما يعاني الطيبون.

لكنني لم أعد أخاف عليه كما كنت سابقًا، أذكّر نفسي دومًا أن الله موجود.

أوصلته إلى غرفته ثم دخلت فراشي فوجدت نيللي تقترب مني هامسة:

- ماما، هل علمت معنى اللون الجديد؟

- أي لون تقصدين؟

- الأخضر الغامق الذي توهج به طيف زيد.

- لا...

- أما أنا فأعلم، إنه يرمز لتأنيب الضمير.

تأنيب الضمير؟ لا بأس أبدًا بهذا التفسير.

أومأت لها برأسي وأنا أتساقط من فرط الإرهاق، كان يومًا طويلًا يندر أن يمر المرء بمثله من كثافة ما احتوى من أحداث وأطياف وألوان.

- ألن تدوني ذلك في شفرتك؟

- في الغد حبيبتي، أمامنا وقت طويل غدًا إن شاء الله.

قلتُها وأنا أتثاءب. تركتني نيللي وخرجَت فتدثرتُ بالغطاء الخفيف وفي غضون لحظات كنت قد سقطت إلى قاع النوم.

*

- أكرهكم.

دوت هذه الكلمة فجأة لتوقظني من غياهب النوم، وقبل أن أستوعب أين أنا، تبعها صوت زجاج يتهشم.

انتفضتُ جالسة في الفراش وتسارعت دقات قلبي كدقات طبول ساحر إفريقي محموم...

استغفرتُ الله، ثم تذكرتُ فتَفَلْتُ عن يساري ثلاث مرات وأنا أستعيذ بالله من الشيطان الرجيم. نظرتُ حولي، كانت الغرفة وما خارجها يلفهما ظلام دامس، أصختُ السمع، لم يكن هناك شيء على الإطلاق سوى صوت (شخير) فاضل المنتظم. فهو ينام بعمق منعزلًا عن الكون، لحسن حظه أنه لم يستيقظ على الصراخ وتهشم الزجاج..

أم كان كابوسًا؟

عدتُ إلى النوم قائلة لنفسي أن كل شيء سيكون على ما يرام في الصباح.

لم أكن أعلم بالأحداث التي كان يخبئها لنا اليوم التالي!

***

- 13 -

هُنا الجريمة

في اليوم التالي، استيقظنا مبكرًا على جلبة غير متوقعة. فيما بعد، علمنا أن الأحداث قد بدأت فجرًا، إلا أننا لم ندر بها سوى في الصباح، ربما بسبب الإرهاق الذي كنا نعاني منه في الليلة السابقة.

استيقظنا بعد الثامنة صباحًا بدقائق على صوت طرق عنيف على الباب، فتح فاضل بنصف عين، ليجد أمامه ضابط شرطة ضخم الجثة متجهم الوجه، يقف وراءه الأستاذ فتحي جارنا في حالة يرثى لها، محشورًا في قميص أبيض وسروال رسمي كحلي، تدلى على كتفيه طرفا رابطة عنقه الزرقاء مفتوحة، وتظهر تحت إبطيه بقعتان صفراوان واضحتان. ومن ورائهما ظهرت الدماء...

نقل فاضل نظراته بين الضابط والأستاذ فتحي في حيرة، ثم لاحظ جمع الجيران الواقف على درجات السلم مشرئبة أعناقهم في فضول. فرك عينيه طاردًا منهما النوم سائلًا:

- خيرًا؟

أجابه الضابط بصوت جهوري:

- أين كنتم مساء أمس؟

- نزور بعض الأقارب.

- متى عدتم إلى البيت؟

- قرب منتصف الليل.

- ألم تسمعوا أو تلاحظوا أي شيء غريب؟

- لا.

- غريبة!

- ماذا حدث؟

هتفتُ أنا بها في هلع بعد أن لبست إسدال الصلاة على عجل وانضممت إلى فاضل على الباب، وقبل أن يجيبني الضابط، انطلق صوت الأستاذ فتحي نائحًا:

- قتلوا سما ابنتي وسرقوا جثتها.

شهقتُ غير مصدقة بينما قاطعه الضابط قائلًا في نبرة سلطوية:

- من فضلك يا أستاذ فتحي.

انكمش الأستاذ فتحي لائذًا بالصمت بينما أردف الضابط:

- لقد تعرض جيرانكم إلى جريمة بشعة بالأمس، قتل وسطو، لقد دخل المجرم عن طريق كسر قفل بابهم، غريب أنكم لم تسمعوا شيئًا، هل لاحظتم الباب حينما عدتم؟ هل كان سليمًا؟

تلعثم فاضل بينما قلت أنا:

- نعم، أنا متأكدة.

كان قلبي يدق بجنون وأنا غير قادرة على استيعاب ما سمعت، سما!

أشار الضابط إلى سلم العمارة الذي يفضي إلى باب الجيران سائلًا:

- وهذه الآثار؟ ألم تكن موجودة؟

شهقت ثانية وأنا أنظر إلى حيث أشار... آثار بنية اللون تغطي السلم من أمام باب الشقة نزولًا إلى أسفل.

- هل... هل هذه دماء؟

سألتُ بصوت مرتجف، فأجابني الضابط بآلية:

- نعم، في الأغلب دماء الفتاة القتيلة.

أضاف الأستاذ فتحي بصوت باكٍ:

- سما.

شعرتُ بالدوار، ولم أستطع استيعاب ما حدث... كيف؟ متى؟

هممتُ بسؤال الضابط حينما فُتح باب شقتهم وطلت منه ميرفت وعلى وجهها نظرة غريبة، كانت تحتضن ابنها عادل الذي التمعت عيناه الضيقتان بالإثارة. رأيتُ تحت أقدامهما في مدخل الشقة المزيد من الدماء، كانت تبدو طازجة أكثر، وأكثر كثافة كذلك. مادت بي الأرض وملت على الحائط فمد فاضل ذراعه وحال بيني وبين السقوط أرضًا في اللحظة الأخيرة. أجلسني على أقرب مقعد للباب وعاد يقول للضابط:

- أنا لا أفهم شيئًا.

أجابه بنفاد صبر:

- لقد حدثت جريمة في الشقة المقابلة لكم، وبما أن الدور به شقتان فقط فتوقعنا أن تكون لديكم أية معلومات تدعمون بها التحقيق، هل كنتم تعلمون أن جيرانكم بالخارج؟ وأن ابنتهم بقيت وحدها في المنزل؟

- لم نكن نعلم.

أجاب فاضل باقتضاب، أردتُ أن أضيف أن سكان الشارع جميعًا يعلمون أن سما دائمًا ما تكون بالبيت وحيدة، وأن ميرفت وفتحي لم يعودا يصطحبان سوى (دولا) في خروجهم، إلا أنني آثرت الصمت، إلى حين...

أردف الضابط:

- لقد قضى الأستاذ فتحي وزوجته وابنهما الليل في فرح أحد أقاربهم، وعادوا قرابة الفجر ليجدوا باب الشقة مواربًا وعليه آثار اقتحام.

تدخل الأستاذ فتحي قائلًا:

- نور السلم كان مطفأ.

- ولكنه كان مضاء حينما عدنا عند منتصف الليل.

قالها فاضل مدهوشًا، فعقب الضابط:

- لقد اكتشفنا مصابيح السلم قد تم تحطيمها، ليس في هذا الدور فقط وإنما ثلاثة أدوار متتالية كانت مطفأة.

تدخل الأستاذ فتحي مفسرًا في حزن.

- لذلك لم نلحظ آثار الدم إلا حينما دلفنا إلى الشقة، وجدناها غارقة في الدماء.

حك الضابط ذقنه مؤمِّنًا:

- كمية كبيرة جدًّا من الدماء.

جاء صوت ميرفت من خلف الرجلين مضيفًا:

- لقد سرق مصاغي أيضًا، الحمد لله أننا كنا في عرس فارتديت نصف مصاغي، لو كنا في زيارة عادية لما سمح لي فتحي بارتداء هذا القدر من الذهب، ولكان قد سُرق مع ما سُرق.

- لقد سرقوا (التابلت) الخاص بي أيضًا.

قالها عادل في حنق، فاحتضنته أمه وربتت على رأسه معقبة:

- الحمد لله أنك كنت معنا فلم يمسسك سوء.

تراءى لي شبح سما، فشعرتُ بالغثيان وقاومت بصعوبة إفراغ معدتي على بسطة السلم. أسرعت إلى الداخل، فارتطمتُ بنيللي التي استيقظت على أصواتنا، راعتها هيئتي، فتبعتني سائلة في قلق:

- ماذا حدث؟

حكيت لها في سرعة ما فهمته من الضابط، فانهالت علي بأسئلتها. لم تكن لدي إجابات، كل ما كان يشغل بالي كان الفتاة المغدورة سما، بقوامها النحيل وعينيها الواسعتين الجاحظتين، وشعرها شديد السواد الذي كان دومًا ينسدل على جانبي وجهها مخبئًا ملامحها، ورأسها المنكسة دائمًا. ترى ماذا فعل المجرم بجثتها؟ بل وما الذي فعله بها كي تنزف هذه الكمية المهولة من الدماء!

أتتني نيللي بكوب ماء به عصير ليمونة وحاولت معي كي أرتشف رشفة أو اثنتين، ولكنني لم أستطع.

تقلصت معدتي تمامًا، وتيبّس فمي، لم أقو على فتحه رغم محايلة ابنتي ومحاولتي.

مشهد الدماء ظل حيًّا في ذاكرتي، كانت آثار الدماء جافة في أغلبها، آثار سحب لجسم ثقيل على السلم، وإن تناثرت هنا وهناك بضع بقع لم تزل رطبة، بينما التصقت بأنفي رائحة الحديد الصدئ. هل شممت تلك الرائحة فعلًا على السلم؟ لست أدري. ربما أضافها عقلي غير الواعي كنوع من المؤثرات على مشهد الدماء المؤلم الذي التصق بخيالي...

- ماما

صرخت نيللي في هلع انخلع له قلبي الذي كان في حالة بائسة أصلًا، نظرت صوبها لأجدها ممسكة بكفها وهي تصرخ في غضب:

- من الذي ترك المكواة في الفيشة طوال الليل، لقد لسعتني.

ثم فتحت كفها أمامي متأوهة لأرى آثار لسعة حمراء تتوسطه، انتفضت نحو خزانة الإسعافات الأولية وأحضرت لها مراهم الحروق فدهنت لها كفها. ثم انتبهتُ للمكواة الموضوعة على وحدة الأدراج بجانب الفراش، كانت تتوهج بالأحمر وتنبعث منها السخونة. عضضت على شفتي في غضب وأنا أسحب فيشتها عن الحائط، كيف لم ألحظها منذ الأمس؟ بل كيف نسيتها، ماذا دهاني؟

طيبتُ خاطر نيللي واعتذرتُ لها عن فعلتي التي لا تليق بأم، أومأت برأسها دون أن تتكلم وخرجت من الغرفة وآثار التألم بادية على ملامحها.

سمعتُ باب شقتنا يغلق، ثم ظهر فاضل على باب الغرفة بمنامته وشعره المهوش، رمى بنفسه على طرف الفراش قائلًا بصوت مضطرب:

- لا أصدق أنه كان هناك مجرم يعبث ويقتل ويسرق على بعد أمتار مننا، لم يكن يفصله عنا سوى هذا الحائط.

قالها وهو يشير إلى الحائط الذي يستند إليه فراشنا. الصورة التي رسمها فاضل كانت مخيفة، فحيث كانت ترقد رؤوسنا، كان هناك مجرم على مسافة أقل من متر يسفك الدماء.

سألته بصوت مرتعش:

- وماذا عن سما؟

- كل المؤشرات تدل أن المجرم قتلها وسرق جثمانها، ولكنهم
لا يعلمون لماذا. أغلب الظن أنه اقتحم الشقة بغرض السرقة، معتقدًا أنها خالية ولكنه وجد سما أمامه، قاومته، فأصابها في مقتل.

- كل هذه الدماء!

***

- 14 -

دواء الأعصاب

ظلّت الجلبة على بابنا دهرًا...

جاء رجال البحث الجنائي وتفقدوا مسرح الجريمة ورفعوا عنه البصمات وما وجدوه من أدلة، ونيللي لا تفتأ تراقبهم من العين السحرية وتأتينا بالأخبار، حتى رحل آخر رجل شرطة مع رحيل آخر ضوء للشمس في ثاني أيام عيد الأضحى المبارك.

لاحظ فاضل امتقاعي فسألني في قلق:

- هل أخذتِ دواء الأعصاب اليومِ؟

لطالما استفزني هذا السؤال، لا أحب أن يذكرني أحد أنني كنت على شفا الجنون، وأنني لا أستطيع المضي يومًا دون ذاك الدواء اللعين الذي يضبب أفكاري ويجعلها خائرة.

إلا أن سؤاله هذه المرة لم يستفزني!

إذ أدركتُ مدهوشة أنني لم أتناول الدواء منذ اليوم السابق ليوم الوقفة، ولا زلتُ بخير.

لقد نسيته تمامًا في غمرة انشغالي بالتطبيق. ومع ذلك كنت في أفضل حالاتي على الإطلاق، تفكير صافٍ ونفس هادئة، ومعدة مرتاحة... وباستثناء نسيان بعض الأمور البسيطة، كنت بخير...

كان فاضل لا يزال منتظرًا إجابتي. قررتُ أن يبقى هذا سري الصغير فقلت له باقتضاب:

- سآخذه.

أومأ برأسه ثم همس على استحياء:

- أليس من الواجب أن تذهبي لمساعدة مدام ميرفت في تنظيف الدماء.

- (اوووع)

كان هذا ردي، تفوهتُ به رغمًا عني وأنا أضع كفي على فمي مخافة التقيؤ، فهم فاضل موقفي فلم يجادل. أردت فعلًا أن أمد يد العون لميرفت، لكن رائحة صدأ الحديد الزفرة كانت أقوى مني. غمغم فاضل ببضع عبارات فهمت منها أنه سيعود إليهم كي يشد من أزر الأستاذ فتحي. أما أنا فقد شعرتُ بالإعياء وبقيت في الفراش طيلة اليوم غير قادرة على القيام بأي شيء، جسدي كله كان خائر القوى.

كانت نيللي تحوم حولي، ظننتها قلقة علي، ولكنها جاهرت برغبتها أخيرًا:

- ماما، أين هاتفك؟

- لا أعلم، لماذا؟

- ما رأيك لو تفقدنا التطبيق كي نر أطياف المجرم وسما، و... وجميعهم.

حدقتُ فيها طويلًا حتى طأطأت برأسها وهمت بالقيام فسألتها:

- هل سيعيد ذلك الفتاة؟

ردت بخجل:

- ربما لا، ولكننا سنعلم على الأقل ما حدث.

إنه الفضول اللعين، تلك الصفة التي ورثتها عني ولا ريب، لم أستطع لومها. قمتُ متثاقلة أبحث عن هاتفي فلم أجده في الأماكن المعتادة، اتصلت به نيللي، فوجدته مغلقًا. تذكرتُ بشكل ضبابي أن بطاريته كانت على وشك النفاد ونحن عائدون مساء، ترى أين وضعته؟

سألتني نيللي:

- هل أخبرت أحدًا عن موضوع التطبيق؟

- لماذا؟

- ربما سُرق الهاتف طمعًا فيه.

نظرية تليق بأجواء الجريمة التي نعيشها، ولكن إجابتي كانت لا، فأنا لم أحك لأي شخص سوى ابنتي، عدت إلى الفراش فسألتني:

- ألن تبحثي عنه؟

- لا أستطيع، أنا منهكة.

جلست بجواري وأخذت تمسح بيدها الحانية على شعري وهي تقول:

- لا تحزني يا ماما، لعله خير فنحن لا نعلم أين الخير...

على الرغم من إظلام قلبي إلا أنني ابتسمت، كانت هذه كلماتي لابنتي بالنص في مواقف متفرقة.

عاد لنا فاضل بوجه ممتقع وحكى لنا قائلًا:

- تصوري، سما اتصلت بأبيها تستغيث، كانت تصرخ ولكن المجرم لم يمهلها.

اعتدلتُ في فراشي وسألته في ريبة:

- ماذا تعني؟

- لقد شعرت الفتاة بالمجرم يتسلل، فاتصلت بأبيها وأخبرته هامسة أن أحدهم قد فتح باب الشقة، وقبل أن تكمل عبارتها أُنهيت المكالمة فجأة، يبدو أن المجرم باغتها حينئذ وأخذ منها الهاتف، إذ إن أباها حاول الاتصال بها ولكنه وجد هاتفها قد أغلق، ومع المعاينة لم يجدوه في أي مكان بالشقة، يبدو أن المجرم سرقه مع باقي المسروقات.

- وماذا فعل أبوها؟ هل اتصل بالشرطة؟

- لا...

- اتصل بأحد الجيران؟

طأطأ فاضل برأسه مجيبًا:

- لا

ثم أضاف مدافعًا:

- يبدو أنه ظن أنها إحدى حركات سما لاستجلاب الانتباه.

- ماذا؟ هل تجاهل استغاثة ابنته؟

- لا تظلميه، لقد ترك العرس وأتى مسرعًا، ولكن لسوء الحظ وصل بعد أن انتهى كل شيء، فالعرس كان في أحد فنادق منطقة الهرم، ويبدو أن المجرم بعد استغاثة سما أنهى عمله في سرعة.

- يا لحظها التعس، تستغيث بأبيها فلا يصدقها...

- صفاء، هو الآن في حالة يرثى لها والندم يمزقه، كل ما في الأمر أنه لم يرد أن يزعج الناس بعد منتصف الليل ثم يتضح الأمر أنه خدعة كسابقتها.

- أية خدعة تقصد؟

نظر لي فاضل في ريبة ثم قال:

- ألا تذكرين منذ عدة أشهر، حينما عادوا من رحلة الفيوم ولم يجدوا سما في المنزل، ووجدوا منها ورقة أنها تركت البيت وألا يبحثوا عنها، انخلع قلب الأستاذ فتحي حينها وأخذ يسأل عليها الجيران والعاملين في متاجر الشارع كالمجنون، ثم ذهب إلى القسم، وكان بصدد عمل محضر حينما اتصلت به زوجته تخبره أن سما كانت مختبئة فوق السطح عقابًا لهما على عدم اصطحابها معهما في الرحلة.

- يستحقون ذلك...

قالتها نيللي التي كانت واقفة على باب الغرفة تستمع إلينا، احتقن وجه فاضل وهو يسألها:

- ماذا تقصدين؟

- لقد كانوا يعاملونها أسوأ معاملة.

- ولكن أباها كان يحبها.

- المعاملة هي ما تهم، ماذا استفادت من حبه المزعوم؟ ربما أحبها، لكنه أحب زوجته وابنه أكثر، وهي كانت تشعر بذلك طيلة الوقت. لا تلمها هي، فاللوم يقع على الأب الذي لم يستطع أن يقنع ابنته بحبه.

اتسعت عينا فاضل من جرأتها، وحدجني بنظرة غضب منتظرًا تدخلي وزجري لنيللي، أشحتُ بوجهي ولم أعقب، فابنته كانت محقة في كل كلمة قالتها، ربما كانت حادة، وأكبر من سنها، وتدخلت في كلامنا، ولكنها كانت محقة. تجاهلت نظراته وأخذت أتأمل سقف الغرفة في صمت قطعته نيللي قائلة لأبيها:

- أريد مفاتيح سيارتك كي أبحث عن هاتف ماما.

- ليس الآن.

قالها في غضب. نظرت إلي نيللي نظرة رجاء كي أتدخل وأضغط على فاضل. ولكنني كنتُ قد سئمتُ هذا الدور، الجميع يحدجني بالنظرات كي أقوم بتوصيل رسائلهم لبعضهم البعض، آن الأوان كي يستخدموا ألسنتهم فيما يريدون، سحبت الغطاء وغطيت به رأسي ناهية النقاش، سمعتها تبرطم قائلة:

- طيب يا ماما، سأجد الهاتف، وسأشاهد التسجيل وحدي ثم أحذفه، طالما أنك لا تهتمين.

ابنتي كانت تدخل لي من ثغراتي، ولكنني لم أستسلم ولم أرفع الغطاء، كنت أعرف أنها لن تمسحه. أردتُ أن ألفت نظرها أنه إذا كان الهاتف في سيارة فاضل، وظل فيها طيلة الليل فلن يكون قد سجل شيئًا مما حدث في شقة الجيران، ولكنني لم أرد نقل المعركة من ساحة فاضل إلى ساحتي، إذ كانت ستعتصرني حينئذ لتستخرج مني مكان الهاتف وأنا كنت راغبة بشدة في النوم...

ولكنني أقول الآن إن كنت قد علمت حينها بما يحويه التسجيل لكنت بحثت عنه بلا هوادة حتى وجدته.

***

- 15 -

كل هذه الدماء!

حمل لنا صباح اليوم التالي أحداثًا أليمة...

«جريمة العقار 47»

كان هذا هو رأس الخبر الذي انتشر في صفحات الحوادث بالجرائد، وعلى المواقع الإلكترونية، لنجد عنوان بيتنا وقد تحول بين ليلة وضحاها إلى عنوان للجريمة..

لم نعرف المستجدات إلا حينما كان فاضل يُخرج القمامة إذ وجد باب الجيران مفتوحًا، ورأى الأستاذ فتحي جالسًا في وجوم وأمامه الضابط الذي رأيناه سابقًا. طرق فاضل بابهم ثم تنحنح ودخل إلى حيث جلس فتحي، ربّت على كتفه مواسيًا دون أن يجرؤ على سؤاله عن ما جد في الأمر. اقتربت ميرفت من زوجها وسألته:

- هل نقيم العزاء اليوم؟

- اليوم؟ دون أن ندفنها؟

- وكيف سندفنها بدون جثمان؟

انهار الأستاذ فتحي في البكاء والنهنهة بينما مصمصت ميرفت شفتيها قائلة:

- بم يفيد البكاء؟ دعنا ننتهي من العزاء اليوم حتى يندمل جرحك سريعًا.

نظر الأستاذ فتحي نحو الضابط سائلًا من وسط دموعه:

- هل يمكننا استخراج شهادة وفاة لها؟

أجابه بنبرة جافة:

- لا يمكن بدون وجود الجثمان.

عقبت ميرفت في سرعة:

- فلندع الأمور الرسمية تأخذ وقتها ومجراها، المهم الآن أن نضع حدًّا لحالة الحزن التي تعانيها.

سألها من وسط دموعه:

- وهل سنجد قاعة بهذه السرعة؟

- قاعة؟ ولم المصاريف؟ العزاء سيكون هنا في البيت. أبلغ أقاربك، ودولا سيكتب على (الفيسبوك).

لم يعقب الرجل، فسأله فاضل في حذر:

- هل تأكدتم من موتها؟ ألا يحتمل أن تكون ما زالت حية؟ أن يكون المجرم قد خطفها مثلًا لطلب فدية؟

رفع إليه فتحي نظراته في أمل فأجاب الضابط قائلًا:

- لقد أفاد الطبيب الشرعي بأن كمية الدماء التي عُثر عليها في مسرح الحادث لا تقل عن لترين ونصف من الدماء، لا يمكن لبشر أن يفقد هذا الكم من الدماء ويظل حيًّا، جسم الإنسان يحوي قرابة الخمسة لترات من الدم، وهذا يعني أنها فقدت نصف دمائها، لا يمكن أن تكون حية، الأمر محسوم.

- هل... هل الدماء لسما؟

- بالطبع، رجال المعمل الجنائي أكدوا ذلك.

- إذن لماذا أخذ المجرم جثتها؟

- هذا ما لا نعلمه بعد، ربما أراد إيهامهم بأنها حية كي يطلب فدية، وربما يريد مساومتهم على جثمانها، كل الاحتما...

قاطعته ميرفت قائلة:

- ماذا؟ لن ندفع مليمًا في جثة، الحي أبقى من الميت.

تجاهل فاضل تعليقها وسأل الضابط:

- ومتى سنعلم الحقيقة؟

- التحقيقات لا تزال جارية، إنها مسألة وقت، فالجثة لا بد وأن تظهر مهما حاول الجاني إخفاءها.

- ألم تجدوا بصمات للمجرم؟

- لم نجد أي بصمات غريبة عن أهل البيت، ربما كان يرتدي القفازات.

انقطع الحديث عند هذه النقطة وعم الصمت، فانتظر فاضل بعض الوقت ثم شعر أن الضابط يريد الانفراد بالأستاذ فتحي فاستأذن خارجًا. لحقت به ميرفت وطلبت منه إخباري بأن العزاء سيكون في البيت بعد صلاة المغرب.

*

فيما بعد، حينما حكى لي فاضل ما دار بينهم من حديث، لم أستطع أن أوافق الضابط في تفاؤله بخصوص ظهور الجثة، فربما يكون الجاني قد قطع أوصالها ورمى بها في مكب القمامة لتأكلها الكلاب، وقد يكون وضعها في حوض استحمام وسكب عليها حمضًا مذيبًا فلم يتبق لها أثر يذكر. أخذتُ أعدد على فاضل طرقًا مختلفة للتخلص من الجثة حينما ارتفع صوت نيللي وهي تغني مقطعًا ما بالإنجليزية وتعيده وتزيده حتى انفجرتُ فيها:

- ماذا دهاكِ، أنت ترددين هذه الأغنية منذ الصباح.

- بل منذ علمت أن جثة سما اختفت.

- وما العلاقة؟

رفعت رأسها وردت بنبرة باردة:

- نحن متخاصمتان.

- أنت وسما؟

- بل أنا وأنت، فلا تسأليني عن شيء.

- بنت!

ولكنها كانت قد وضعت السماعات في أذنيها وابتعدت مرددة المقطع ذاته:

- No no body no crime...

متى تخاصمنا؟ لا أذكر...

بعد لحظات وجدتني أردد رغمًا عني:

- نو بودي نو كرايم!

*

كنت أمر بالصالة حينما وجدت الهانم ابنتي ممسكة بهاتفي وعاكفة على تفحصه، اقتربت منها فخبأته وراء ظهرها قائلة:

- أنا من وجدته ومن حقي مشاهدة التسجيل وحدي.

رمقتها بنظرة نارية، فتداركت نفسها وأخرجت الهاتف على مضض، لم أصدق استسلامها السريع، في الأغلب أرادت المشاركة، مددت رأسي قائلة:

- ابدئي من البداية.

- سأبدأ من منتصف الليل.

شغّلت نيللي التسجيل وبدأنا بمراقبة أطياف الشقة المقابلة ليلة الحادث.

بدأ الأمر بطيف واحد، افترضنا أنه لسما، كان يتأرجح بين الرمادي والأسود، الرمادي للملل، وهو طبيعي كون الفتاة تقضي ليلة أول أيام العيد وحدها، ولكن لِمَ الأسود؟

بعد قليل ظهر طيف ثانٍ، طيف المجرم في الأغلب. كان ينبض بالأسود، توقعتُ أن يكون برتقاليًّا، قلتُ لنيللي:

- انظري، المجرم كان قلقًا!

- لعلها جريمته الأولى فلم يخطط لها جيدًا، هذا يفسر كم الدماء وكذلك اختفاء الجثة.

فجأة بدأت الأطياف تتبدل بسرعة بين الأخضر والأزرق والوردي والفيروزي والأسود، نظرتُ لنيللي في دهشة فقالت لي في نفاد صبر:

- التطبيق يخرف يا ماما...

- ولكن التطبيق لم يخطئ من قبل.

- ربما خطأ في برنامج التسجيل، أو في شاشتك ذات الألوان السيئة.

هممتُ بالرد عليها إلا أن صوت فاضل قاطعنا:

- صفاء، أخبار الغداء؟

فوجئتُ بأن الساعة قد اقتربت من الثالثة عصرًا وأنا لم أبدأ في إعداد الغداء بعد، وبما أن هذا عيد اللحم، فتقضية اليوم بشطائر خفيفة أو وجبة خالية من البروتين سيجعل فاضل يأكلني حية.

انتفضتُ وأسرعت نحو الثلاجة أجمع مكونات أية أكلة ممكنة، تأففت نيللي قائلة:

- لم ننته بعد، أعطيني الهاتف أشاهد التسجيل حتى تنتهي من إعداد الغداء...

- هذا بدلًا من عرض المساعدة؟

لوت شفتيها وهي تمد لي يدها، فرفضتُ قائلة:

- لن تأخذيه الآن، أنا لم أمسسه منذ أمس الأول، لا بد أن (الواتساب) سينفجر من الرسائل.

- ولكنك ستطبخين.

- سأتابعه وأنا أطبخ.

- طيب يا ماما، لن أنساها لك.

وابتعدت غاضبة تبرطم...

- I think he did it but I just can't prove it

- ماذا؟

- No, no body, no crime

استفزتني كلمات الأغنية التي ما فتئت نيللي ترددها، فأسقطتُ المكرونة في الماء المغلي وكتبت كلماتها في محرك البحث. اتضح أنها أغنية حديثة لتلك الـ (تيلر سويفت) التي لحست مخ ابنتي.

دفعني الفضول لقراءة كلمات الأغنية... واعترفتُ لنفسي أنها موحية حقًّا!

فهي تحكي عن صديقة المطربة المسماة «اتسي» التي كانت تشك في رفيقها الشاب أنه على علاقة بأخرى، ثم اختفت اتسي فجأة. وبرغم شكوك المطربة في رفيق صديقتها، إلا أنها لم تستطع توجيه الاتهام إليه بدون وجود الجثة، ومن هنا تأتي عبارة: No body, no crime، لا جثة، لا جريمة...

هذا ما عنته نيللي: اختفاء جثة سما قد يكون له سبب آخر غير ما ذكره الشرطي. فبغير الجثة، لا يمكن توجيه الاتهام لأحد بالقتل..

يا لها من فكرة!

.No body… no crime

***

- 16 -

العزاء

تناولنا الغداء، ثم طلبت من نيللي الاستعداد بلباس مناسب كي نذهب للعزاء إذ كان المغرب قد أوشك، اقتربت مني هامسة:

- ألن نكمل مشاهدة التسجيل؟

كنتُ حينها قد فقدتُ الرغبة في مشاهدة التسجيل. ما حدث لسما هزني بشكل ما، جعلني أشعر أن الدنيا قصيرة، وهو ما نعلمه بالضرورة، ولكنه ذكرني... وأشعرني أن مراقبة الناس من خلال أطيافهم لهو فعل لا إنساني، جعلني أشعر بالزهد في التطبيق وما قد يحمله لي من معلومات أو ما قد يكشفه لي من مكنونات البشر...

لم أفصح لنيللي عن مشاعري هربًا من مناقشة بيزنطية أعرف أنها ستطول بلا طائل، عوضًا عن ذلك أجبتها:

- ليس الآن، سيلاحظ أبوك الأمر ولن نسلم منه، دعينا ننتهي من واجب العزاء أولًا.

لحسن حظي كان فاضل جالسًا على الأريكة ينظر نحونا بفضول، فانصاعت وذهبت إلى غرفتها. ارتديتُ عباءتي السوداء وطرحة بيضاء وناديتُ على نيللي فأتتني ترتدي سروالًا (جينز) مقطوعًا وقميصًا بنفسجيًّا فاقعًا....

كان ذلك هو لبس العزاء الخاص بها ولا عزاء لي، عوّض علي عوض الصابرين يا رب.

خرجنا من بيتنا لنجد آيات القرآن الكريم تصدح برصانة من باب شقة الجيران المفتوح بينما اكتظت الشقة بمقاعد خشبية جلس عليها المعزون وقد تدثروا بالسواد مثلي.

اجتزتُ المدخل حيث كانت الدماء تغطي أرضه صباح اليوم السابق، بدا أنهم قاموا بعملية تنظيف جيدة، فخشب الأرضية العتيق قد تخلص من الدم، لاحظت شيئًا ما فقربت رأسي من الأرض

ناظرة، كانت بضعة خيوط دقيقة ملونة اشتبكت مع نتوءات ألواح الخشب الموسكي التي غطت الأرض.

لاحظ الأستاذ فتحي تحديقي فقال:

- نظفنا الدم بصعوبة، ولكننا لم نستطع التخلص من آثار ملابسها حيث جرها المجرم...

ثم أضاف بصوت متهدج:

- سبحان الله وكأنها متشبثة بالبيت رغم رحيلها.

رفعتُ رأسي أنظر إليه، استغربت عبارته الأخيرة، ولكنه كان قد ابتعد عني مستقبلًا العزاء من آخرين.

دخلنا الشقة فوجدنا الحاجة فوقية قابعة في المنتصف كطائر رخ مسيطر، بعينيها الحادتين وعباءتها السوداء الفضفاضة وقد تدلت على صدرها عدة سلاسل ذهبية انتهت كل منها بسبيكة زاخرة بالآيات القرآنية.

أما ميرفت فكانت منهمكة في حديث خافت مع شاب لم أره من قبل، كان قصيرًا وله كرش كبير برغم صغر سنه، وكان شعره ممشطًا إلى أعلى ويرتدي سلسلة ذهبية في رقبته الغليظة، بينما رقدت عيناه في فجوتين عميقتين شاحبتين وإن لم تكفا عن الحركة طيلة الوقت.

اخترتُ أبعد مقعدين عن الحاجة فوقية، وجلسنا أنا ونيللي ننتظر ميرفت حتى تنتهي من حديثها لتعزيتها. لم أجد بدًّا من متابعة ما كان يحدث أمامي، كانت ميرفت عاقدة الحاجبين تتحدث مع الشاب بجدية شديدة، أما هو فكان حديثه عصبيًّا مليئًا بالإيماءات. لاحظت ابنتي اهتمامي بهما فأمالت رأسها نحوي هامسة:

- هذا هو حمدي، ابن أخت طنط ميرفت.

- كيف عرفته؟

- وصفته لي سما من قبل، طنط كانت ترتب لتزويجها منه.

قلت مدهوشة:

- ولكنه لا يبدو مناسبًا لها، لا يشبهها في شيء.

- لهذا كانت سما تكرهه وتكرهها.

قطعت حديثنا الحاجة فوقية وهي تسحب مقعدًا وتضعه بالقرب مني وتجلس عليه قائلة:

- غريب ما حدث للفتاة.

لم أعقّب على عبارتها فأضافت هامسة:

- لقد توقعتُ أن تكون نهايتها سيئة ولكن ليست من هذا القبيل.

نظرت لها في هلع:

- ماذا تقصدين؟

لوّت شفتيها قائلة في احتقار:

- يعني... لقد توقعتُ أن تهرب مع أحدهم أو يُقبض عليها بسبب سرقة أو سكر.

اتسعت عيناي غير مصدقة بشاعة ما قالته المرأة عن الفتاة المنطوية المغدورة. ألجَمَت كلماتها السامة لساني، فأمسكت بيد نيللي بعنف وسحبتها راغبة في الرحيل، ولكن في تلك اللحظة اقتربت منا ميرفت قائلة:

- خطوة عزيزة يا حبيبتي، أتعبناكم.

اضطررتُ للجلوس ثانية وأنا لا أكف عن رمق الحاجة فوقية في عدم تصديق. بينما أعادت ميرفت عبارتها بصوت أعلى فقلت لها:

- لا أبدًا، سما كانت مثل ابنتي.

- وكانت تحب ابنتك كثيرًا، خسارة أنك منعتيها عنها.

- ماذا؟

صُدمتُ لعبارة ميرفت، هل كنتُ مفضوحة لهذه الدرجة؟

رمقتني نيللي بنظرة استفهام، تحولت إلى غضب إثر صمتي.

لم أستطع الإنكار...

هذه هي الحقيقة، صادمة... ومؤلمة.

أحببتُ الفتاة حقًّا، ولكنني خشيتُ على ابنتي منها ومن أفكارها، فرق ثلاث سنوات في هذا السن ليست بالهينة، وسما كان لديها غضب مكبوت تجاه أفراد أسرتها، خفت أن ينتقل إلى ابنتي وهي في سن صعب السيطرة على مشاعره. كما وأن مظهر سما كان مقلقًا، بجسدها النحيل إلى حد مرضي وشعرها المنسدل الذي يخفي وجهها عنا، وعينيها الجاحظتين اللتين كانتا تتجنبان التواصل المباشر، والوشوم القاتمة التي انتشرت على جسدها والجروح القطعية التي ظهرت في أكثر من مكان على ذراعيها، رغم حرصها على ارتداء ملابس بأكمام طويلة حتى في الصيف.

كنت قلقة...

أنا أم وهذا حقي.

قلت لفاضل ذلك الكلام باكية حينما عدنا إلى المنزل فقال:

- لقد قتلنا هذا الموضوع بحثًا يا صفاء، واتفقنا أن ذلك كان القرار المناسب وقتها، سما ظهرت عليها سمات الاكتئاب المرضي بوضوح. ألم نشك أنها حاولت الانتحار ليلة أن نقلوها لطوارئ المشفى ثم أخبرونا أنها حالة تسمم، والمرة التي تلتها حينما قالوا جرحت نفسها عرضيًّا ومشهد الدماء جعلها تفقد الوعي.

- والشاب...

عقبت بصوت خافت دون أن أنظر لفاضل، فرفع رأسه وسألني مدهوشًا:

- شاب؟ أي شاب؟

- كانت على علاقة بشاب ما، أخبرتني عنه نيللي، وذلك ما دفعني لمحاولة تخفيف العلاقة بين البنتين.

- لم تخبريني بهذا الأمر من قبل.

- لم أرد لك أن تقلق.

- لم أكن لأقلق، ليس مستغربًا أن تكون فتاة في سنها على علاقة بشاب من المدرسة أو النادي، ألا يحدث ذلك؟

أجبته في خفوت:

- ولكنه لم يكن من المدرسة أو النادي، تعرفت عليه من على «النت»، وكان يكبرها بعشر سنوات دفعة واحدة.

اتسعت عينا فاضل وقد أدرك ما أرمي إليه فقال حاسمًا الجدال:

- خيرًا ما فعلت، الفتاة كانت تحيط بها شكوك كثيرة، وابنتنا في سن حرج ومن حقنا الدفاع عنها، قرارنا كان سليمًا في حينها فلا داعي للندم عليه الآن.

برغم المنطق في كلامه إلا أنني لم أستطع التخلص من الغصة وتأنيب الضمير العميق الذي انتابني تجاه سما. أدركتُ الآن أنها كانت تحتاج حنانًا وتفهمًا واحتواءً، ألم نكن نحن أولى من ذلك الشاب؟ ولكنني كنت جبانة.

مسحتُ دموعي وسألتُ فاضل السؤال الذي ظل يدور في رأسي منذ الحادث:

- ترى، هل لو كنا فتحنا بيتنا لسما وتركنا ابنتنا تصاحبها، هل كانت لتظل حية؟

- لو تفتح باب الشيطان، ثم إن الفتاة قُتلت ولم تنتحر.

- وما أدرانا؟

- ماذا تعنين؟

- أعني أنها ربما قاومت المجرم بشراسة بدلًا من الاستسلام له أو الاختباء منه رغبة في التخلص من حياتها. وكأنما رمت بنفسها إلى التهلكة عامدة.

صمت فاضل للحظة متفكرًا ثم أشاح بيده في الهواء قائلًا:

- هذا هراء. وحتى وإن صح، فلسنا مسئولين عن اكتئابها وحزنها وحياتها الأسرية التعيسة.

ربما كان فاضل محقًّا، لم نكن مسئولين، ولكن هل كان بإمكاني أن أصنع فارقًا؟

ألم يكن بوسعي تعويضها عن حياتها البائسة والحنان الذي حرمت منه؟

ثم تذكرتُ نيللي، كيف سأتمكن من شرح موقفي لها؟ لن تسامحني على كل المرات التي اختلقتُ لها فيها أعذارًا كي أحول بينها وبين اختلاطها مع سما.

عندئذ تذكرتُ ميرفت وهي تلقي بكلماتها المسمومة على مسامعنا، ونظرتها الثابتة في عيني، وكأنها تقول لي: لستُ وحدي المسئولة عن تعاسة الفتاة، كلكم مسئولون لا أستثني منكم أحدًا.

ترى لم قالت ما قالت؟

هل كانت تقصد معاتبتي بسبب حزنها على الفتاة؟ ليتني أخذتُ هاتفي معي، كان طيفها لينبئني بمشاعرها الحقيقية نحوي.

تمددتُ في الفراش وحدقتُ إلى السقف، كنت أشعر بالفجيعة...

أتفكر في الفتاة التي لم تعد موجودة، ثم ارتسمت في مخيلتي بغتة صورة غائمة لشيء ما. شيء لم يكن في موضعه، أو به خطأ ما، رأيته اليوم. تعرفون ذلك الشعور الغامض بوجود شيء مبهم لا يمكن وصفه أو تفسيره بالكلمات.

عصرتُ مخي ولا فائدة...

كان شيئًا رأيته في شقة الجيران ولا ريب، شيئًا مرتبطًا بسما، ولكن ما هو؟

تعبتُ من التفكير بلا طائل، فخرجتُ إلى الشرفة ألتمس بعض الهواء النقي بعيدًا عن هواء التكييف. لم أحاول إشعال الضوء، بل قبعت على المقعد الخشبي المتواري في الركن محاولة التأمل في النجوم التي طمست ضياءها أضواء شوارع المحروسة التي
لا تنام.

حينئذ تناهت إليّ بعض الأصوات الهامسة. لم أتبين مصدرها في البداية، أصختُ السمع فأدركتُ أنها صادرة من الشرفة التي بجواري، كان صوت ميرفت تتكلم مع شخص ما، سمعتها تتوعد بصوت كالفحيح:

- إياك أن تخبر أحدًا...

- كيف تريدين مني أن أصمت، أقول لك لقد رأيتها.

- أنت متوهم ولا ريب.

زحفتُ على ركبتي ومددت رأسي من السور محاولة استكشاف هوية الشخص الذي كان معها، لم أر سوى كرش كبير وسلسلة ذهبية تلمع في الظلام.

انتظرتُ لعلي أسمع المزيد ولكن تناهى إليّ صوت إغلاق الشيش، علمتُ أنهما قد دخلا فدخلتُ بدوري متفكرة فيما سمعت، ترى ماذا كان يقصد حمدي؟

ظلت الأفكار الغريبة تراودني حتى استسلمت للنوم.

كانت ليلة حزينة جديدة تمر على بيتنا.

يبدو أن القدر كان قد ادخر لنا العديد من الليالي الحزينة، ثم أخرجها لنا دفعة واحدة.

ليلة تلو الأخرى...

***

- 17 -

أطياف ليلة الحادث

استيقظنا صباح اليوم التالي على صوت خبط وتحريك أثاث.وصلت الجلبة إلى بابنا حينما دقت ميرفت الجرس لتطلب المساعدة في نقل بعض الأغراض، اعتذر لها فاضل بسبب آلام ظهره المزمنة ولكنه - وبشهامته المنقطعة النظير- وعدها أن يوقظ زيد كي يحل محله. أخرجتُ رأسي من خلفه وأنا لا أزال في منامتي محاولة دفع الأمر بعيدًا عن زيد فقلت لميرفت:

- صباح الخير، أظنني لن أتمكن من إيقاظ زيد بسهولة، لقد سهر طويلًا، ألا يمكن لحمدي أن يساعدكما إلى أن يستيقظ زيد؟

سألتني في استغراب:

- حمدي؟

- نعم، ألم يبت ليلته معكم أمس؟

أجابتني والدهشة تعتريها:

- حمدي رحل بعد العشاء مباشرة، لا بد وأنك تتوهمين.

ثم تراقصت ابتسامة على شفتيها وهي تقول:

- لا بد أنه الدواء الجديد، لا عليك، أرجوكِ أيقظي زيد فنحن نحتاجه والجيران لبعضها البعض.

قالتها ثم انسحبت إلى الداخل تلقي تعليماتها إلى ابنها وزوجها، بينما أمال فاضل رأسه عليّ قائلًا:

- لقد رأيت حمدي وهو يسلم عليهم ويرحل مساء أمس، أمتأكدة أنك مواظبة على الدواء؟

*

لم ينتظر فاضل ردي بل ذهب في مهمته المقدسة لإيقاظ زيد، والتي فعلها بحماسة وكأنما لذ له أن يحرم ابنه من سويعات النوم الإضافية التي لم تتسنَّ له. قام زيد وعلى وجهه آثار غضب مكتوم توقعتُه، ليس فقط بسبب الاستيقاظ المبكر في أيام الإجازة، وإنما لأنه لا يحب الاختلاط بالبشر عمومًا، ولا بميرفت وابنها خصيصًا. حاولت ميرفت مرارًا وتكرارًا الدفع بعادل ابنها لعقد صداقة مع زيد ولكنه لم يعطهما الفرصة لذلك.

على أية حال، قَبِل زيد المهمة على مضض وخرج إليهم. بينما حاولتُ أنا الانهماك في بعض الأعمال المنزلية دافعة عني التفكير في عبارة ميرفت السخيفة وسؤال فاضل الأسخف. هل سمعتُ حمدي وميرفت بالفعل؟ أم كانت أضغاث أحلام؟ صحيح أنا منقطعة عن الدواء، ولكنني بخير، لم أعد أتوهّم شيئًا. بالتأكيد مرأى ميرفت مع حمدي أثناء العزاء وتهامسهما المريب جعل عقلي الباطن يستحضرهما في أحلامي، وبسبب الإرهاق والمشاعر المختلطة التي خلفها مشهد العزاء توهمت أنني رأيتهما رأي العين. لا بأس، من منا لا يمر بفترات إرهاق!

قاطعت نيللي أفكاري واقتربت مني قائلة في خفوت:

- ماما، بابا مشغول في مكالمات العمل، ما رأيك أن نكمل التسجيل؟

تجيد انتهاز الفرص تلك الفتاة. في الحقيقة، لم أكن أريد الخوض في ليلة الحادث ثانية، كنت أريد نسيان الأمر برمته، ولكنني لم أجرؤ على صرف نيللي ثانية خاصة بعد أن تجاوزت عن كلمات ميرفت بالعزاء وفكّت خصامها معي، فوافقتُ مرغمة.

بدأت نيللي التسجيل من أوله. رأينا طيف سما المتأرجح بين الرمادي والأسود، ثم طيف المجرم الأسود، بعدها بدأ التحول المجنون للأطياف بين عدة ألوان. استَبَقت نيللي تعليقي بقولها:

- قلنا خطأ في التطبيق يا ماما.

- حسنًا...

استمر تحول الطيفين لألوان غريبة منها الأزرق الفاتح، أم هو فيروزي؟ تبًّا لألوان شاشتي البائسة...

قلتُ لنيللي:

- لا يعقل أن يشعر المجرم بالحماس في مثل هذا الموقف.

- ولكن إذا كان المجرم مجنونًا أو ساديًّا يا ماما، سيشعر بالإثارة عند رؤية الدماء.

اقشعر بدني وأنا أسترجع صورة الدماء التي غمرت أرض شقتهم، ورائحتها الصدئة، ثم نظرتُ إلى ابنتي وتساءلت، متى كبرت وأصبحت تتكلم عن المجانين والساديين بكل هذه الثقة؟

- انظري يا ماما.

نظرتُ إلى حيث أشارت فوجدت الطيفين وقد تحولا إلى البرتقالي فجأة.

أمعنت النظر، لا ليس كلاهما، بل طيف سما هو من تحول إلى البرتقالي بينما تحول طيف المجرم إلى الذهبي.أصبحتُ أجيد التمييز بين اللونين. ولكن مهلًا، ألا يفترض أن يكون المجرم هو من يشعر بالرغبة في الإيذاء لا سما! يبدو أن نيللي على حق، التطبيق يخرّف، قلتُ في غيظ:

- ما هذه اللخبطة؟

- ربما حاولت سما إيذاء المجرم...

- ربما.

تفسير لا بأس به، تابعنا الطيفين وهما يتبدلان في سرعة شديدة بين الألوان المختلفة، حتى ابتعدا خارج نطاق التطبيق.

قلتُ لنيللي:

- هذه الألوان ليست منطقية على الإطلاق...

- لقد كان التطبيق يعمل بدقة ماذا حدث.

تذكرتُ شيئًا فسألتها:

- ولكنك لم تخبرينني أين وجدت الهاتف؟

- محشورًا بين فراشك والحائط... آآآه

صرخت نيللي حينما أمسكت بيدها، إذ مسستُ لسع المكواة في كفها والذي انتفخ وامتلأ بسائل شفاف. ثم هتفت فجأة:

- لقد فهمت... المكواة..

- ما بها؟

- لا بد أن سخونتها أثرت على عمل التطبيق، لذلك توالت الألوان غير المنطقية.

ثم حدجتني بنظرة مغتاظة وهي تقول بصوت كالصرير:

- هل كان يجب أن تنسي فيشة المكواة تلك الليلة؟ لقد أضعتِ علينا اكتشافات هامة.

قلت بصوت مبحوح:

- ولكن ربما... ربما لو شاهدنا الفيديو ثانية لوجدنا تحليلًا منطقيًا للألوان...

زمت شفتيها وهي تقول في خفوت:

- بابا على حق، يجب أن تواظبي على الدواء كي لا تنسي مجددًا...

أوجعت قلبي بكلماتها، ولكنها كانت على حق... هممتُ بالرد عليها حينما وجدتُ فاضل واقفًا أمامي يقول:

- ألم يتأخر زيد؟

نظرتُ إلى الساعة بدوري، وتفاجأتُ أنها قد تعدت الثانية عشرة ظهرًا، لقد تأخر حقًّا. اتصلتُ به على هاتفه، فرد علي بصوت لاهث، سألته:

- أين أنت يا بني؟

أجابني هامسًا:

- ألا تعلمون؟ أنتم من زججتم بي في هذا الأمر.

ابتلعتُ ريقي وقلت له:

- هذا يكفي، اعتذر منهم وتعالَ، قل لهم بابا يحتاجني ضروري.

أوقفتُ اعتراض فاضل بإشارة من يدي وأنهيتُ المكالمة ثم قلت له:

- الولد على لحم بطنه يا فاضل وله أكثر من ثلاث ساعات يساعدهم. لن نجامل الجيران على حساب ابننا.

لوى فاضل شفتيه وابتعد وهو يبرطم، سألتني نيللي:

- صحيح، ما كل هذا الخبط منذ الصباح؟

- لا أعلم، الآن يأتي أخوك ويخبرنا.

وبالفعل، لم تكد تمر ثوان حتى تعالى جرس الباب، فتحت نيللي ودلف زيد إلي حيث كنا نجلس، وتبعته هي وسألته في فضول:

- ماذا كنت تفعل لديهم كل هذا الوقت؟

رد عليها بفظاظته المعتادة -وغير المبررة- معها:

- أنا متعب.

صمتت متأففة بينما قلتُ له في لطف:

- حبيبي فطورك في المطبخ، كل وارتَح ثم تعالَ لتخبرنا.

ظهر التردد في عينيه للحظة وكأن لديه ما يريد قوله، ثم استجمع نفسه وابتعد نحو المطبخ.

انتابني حينها شعور غامض بالقلق...

هل هو متعب فقط؟ أم هناك شيء آخر؟

قطع حبل أفكاري صوت تهشّم زجاج في المطبخ، هرعتُ لأجد برطمان (النوتيلا) وقد تحول إلى قطع زجاجية صغيرة متناثرة بينما افترشت كريمة الشيكولاتة الأرض. وقف زيد ينظر إلى (النوتيلا) المهدرة وقد احمرّت أذناه واغرورقت عيناه بالدموع. في موقف آخر لكنت فقدت أعصابي وألقيتُ على مسامعه وابلًا من التوبيخ المختلط بالصراخ، ولكن هيئته المرتبكة جعلني أربّتُ على كتفه قائلة:

- فداك يا حبيبي، لا تهتم، سأتصرف.

ظهر الامتنان العميق في عينيه ولم يتكلم. انهمكتُ في إزالة آثار ما حدث، ثم تظاهرتُ بعدها بغسل المواعين كي أتجاذب معه أطراف الحديث:

- قل لي من كان هناك؟

- كلهم.

ردوده المقتضبة هذه تفرسني، ولكنني لم أيأس:

- حتى عمو فتحي؟

- لا عمو خرج.

- دولا وميرفت؟

- نعم.

- فقط؟

- وتفاهة كان يساعدنا.

- هل عادوا من البلد؟

- تفاهة لم يسافر معهم.

تفاهة هو الابن الأصغر لحارس العقار العجوز ومساعده في العمل.أطلق عليه السكان هذا الاسم منذ سنوات لتشابهه الشديد في الوجه والجسم مع شخصية أحد أفلام التسعينيات. اعتاد حارس العقار أن يصطحب أسرته إلى البلد كل عيد، يعِدُنا بالغياب لأربعة أيام فقط، ثم لا نراه قبل عشرة أيام على الأقل، غريبة ألا يسافر معهم تفاهة هذه المرة!

- ماذا كنتم تفعلون؟

- طنط ميرفت أرادت نقل دولا من غرفته الصغيرة إلى غرفة سما، طلبت منا أن نساعدها في تفريغ حجرة سما من أغراضها، ورصها في صناديق كرتون، ثم طلبت منا أن نساعد دولا في جمع أغراضه من غرفته، وبعدها أرادت مني أن أقوم بطلاءخزانة ملابس سما ومكتبها وسريرها باللون الأزرق بدلًا من الوردي، ولكنك أنقذتِني من هذه المهمة حينما اتصلتِ، فتركتُ تفاهة يقوم بها وحده.

اغتظت من ميرفت، تنفي الفتاة المغدورة من حياتهم هكذا ودماؤها لم تبرد بعد.

صحيح أن غرفة دولا صغيرة بالفعل، كونها في الأصل شرفة تم تقفيلها بالزجاج (الألوميتال)، ولا أنكر أيضًا أن الحي أبقى من الميت، ولكن ليس بهذه السرعة، وكأنها كانت تنتظر اللحظة التي ستغادر فيها سما كي تشطبها من حياتهم تمامًا ويحل دولا محلها.

شعرتُ بغصة، ووجه الفتاة لا ينفك يظهر أمامي بشعرها المنسدل وعينيها الحزينة، تلك الفتاة التي كانت من لحم ودم ثم لم يتبق منها إلا ملء بضعة صناديق (شيبسي) وعصير!

لم أستطع الاستمرار في التظاهر بغسل المواعين، فتركتها ترزح تحت فقاقيع الصابون، وأسرعتُ نحو فراشي وارتميتُ عليه أبكي...

***

- 18 -

شخص معروف؟

أنهيتُ وصلة انهياري على الفراش بعد أن نجحتُ في إبعاد شبح سما عن ناظري أخيرًا.

مسحتُ دموعي وعدتُ إلى المطبخ، لأسمع نيللي تقول متهكمة:

- ليست هكذا تُنطق يا بابا، عيب عليك.

استشاط فاضل من الغضب صائحًا:

- قلت لك مائة مرة لا تخاطبيني بهذا الأسلوب، أنا أبوك ولست صديقتك.

ولدهشتي اقتربت منه نيللي وقالت:

- أنا آسفة يا بابا سامحني.

رق لها قلب فاضل:

- لا بأس يا ابنتي.

- بابا ما رأيك في شعري، هكذا أفضل أم هكذا؟

ماذا دهاها؟ هي تعلم جيدًا أن فاضل آخر من يُسأل في هذه الأمور. تردد فاضل كما توقعتُ ثم قال:

- الاثنين حلوين.

- شكرا يا بابا.

واقتربت منه تقبله على وجنته وسط دهشتنا جميعًا من لطفها المفاجئ وتبدل مزاجها!

بعد لحظة وجدت نيللي إلى جواري في المطبخ تهمس لي:

- ماما التطبيق يعمل بشكل جيد.

- ماذا؟

- ألم تسمعي ما فعلته مع بابا؟ كنت أختبر التطبيق وأراقب لون طيف بابا.

قالتها ورفَعَت الهاتف إلى وجهي المدهوش تريني تسجيل فاضل وهي تقول:

- انظري، في البداية غضب، فكان طيفه أحمر، ثم وردي، حب، ثم ذهبي، حيرة.

- حينما سألتِه عن شعرك؟

- نعم، وحينما قبّلته تحول إلى الأخضر.

- غريبة! منذ متى تُسعد القبلات أباك؟

- ماما ركزي... التطبيق يعمل بشكل جيد، أي أن ألوان طيف المجرم وسما صحيحة.

- ولكن كيف؟ لقد كانت الألوان تتبدل في سرعة، والألوان ذاتها لم تكن منطقية على الإطلاق، ما هذه الحيرة يا ربي.

- الحيرة ليست في الألوان فقط يا ماما، وإنما في التحركات أيضًا.

- ماذا تعنين؟

- انظري...

قالتها نيللي وهي تعيد التسجيل حتى لحظة ظهور طيف المجرم.

- هنا المجرم يقف على باب شقتهم، لماذا تقترب سما من الباب وتقف عنده؟ أليس من المنطقي أن تهرب منه؟

- ربما سمعت صوتًا على الباب فاقتربت كي تتأكد...

- وهنا يا ماما، وقفت مع المجرم ثم دخلا البيت سويًّا.

- ربما (طفّش) الباب فوجدها أمامه فقام بتكتيفها وجرها إلى الداخل.

- لا يا ماما، سما كانت تعرفه يا ماما، القاتل شخص معروف لديها.

امتقع وجهي وأنا أتذكر ما حكاه لي فاضل على لسان ضابط الشرطة حينما قال إن كل البصمات التي وجدوها كانت لأصحاب البيت.

أومأت نيللي برأسها ببطء وكأنما قرأت ما أفكر فيه وأمّنت عليه، سألتها:

- من تظنين؟

- طنط ميرفت؟

- ولكنها كانت في الفرح مع الأستاذ فتحي.

- طنط ميرفت والأستاذ فتحي.

- حرام عليك يا نيللي، أيًّا كان رأيك فيه ولكنه لن يفعل ذلك في ابنته أبدًا.

- من إذن؟

سرحت كل منا تفكر ثم نظرنا لبعض في ذات اللحظة وقلنا:

- حمدي؟

تحمّست نيللي للفكرة وقالت:

- هو بالتأكيد، وفي الأغلب بالاتفاق مع طنط ميرفت.

- حرام عليك...

- ألم تلاحظي كيف كانا يتكلمان يوم العزاء؟ بينهما سر غامض.

- ربما...

لم أستطع أن أصارحها بالحلم الذي رأيته لهما معًا في الشرفة، فنيللي لا تؤمن بالأحلام.

- لا يوجد ربما يا ماما، حمدي أراد سما، وطنط ميرفت أرادت الخلاص منها، اجتمعت رغبتاهما، زواج سما من حمدي كان هو الحل المناسب للجميع، لكن سما رفضت تلك الزيجة بشدة، بل وسخرت من حمدي كلما رأته، بينما فشلت طنط ميرفت أن تحمل عمو فتحي على إرغام سما على الزواج، ماذا تفعل إذن؟ تحكي لحمدي كيف تمقته سما وكيف تتكلم عنه باستخفاف حتى يجن جنونه ويرغب في الانتقام منها، ويعزم على قتلها. فتخبره طنط الوقت المناسب الذي تضمن أن عمو فتحي سيكون بعيدًا فيه عن البيت.

تفكرتُ في تخمين نيللي، بقدر ما كان بشعًا، بقدر ما كان منطقيًّا.

ذلك يفسر عدم خوف سما من المجرم عند فتح الباب –بافتراض أن تحركات الأطياف كانت صحيحة - وكذلك عدم وجود بصمات غريبة. وجدتني أسأل نيللي:

- ولكن لماذا تطفيش الباب؟ إذا كانت سما هي من فتحت للمجرم.

- ربما أراد أن يظهر الأمر للجميع وكأن الجاني شخص غريب عن البيت فقام بتحطيم القفل بعد أن قام بجريمته.

- وهل حمدي هذا يعتبر من الأسرة فعلًا؟ ألن تشك فيه الشرطة إن وجدوا بصماته؟

- ربما لم يجدوها، ربما كان يرتدي قفازًا...

تفكّرت نيللي للحظة ثم قالت:

- سأظل أبحث في الأمر حتى أصل إلى الحقيقة.

قالتها بشموخ وتصميم وذهبت. شككتُ أنا أن تصل لأي شيء، فمن هي لتكتشف ما لم تستطع الشرطة اكتشافه، حتى وإن كان معها التطبيق وأطيافه الغامضة. ولكنني لم أرد إيقافها أو إحباطها إذ كنت سعيدة أنها وجدت ما يشغلها ويسليها في إجازتها.

اندلع في تلك اللحظة صياح زيد فهرعتُ لأجده يرمي بذراع (البلاي ستيشن) نحو أخته في غضب.

- ما الذي حدث؟

- خسرتُ الدور بسببها.

- لم أفعل شيئًا ماما.

- كانت تغني بصوتها المزعج ففقدت تركيزي وقُتلت، كله بسببها.

كان زيد يصرخ في هيستيريا والدموع تفر من عينيه، أمسكت برأسه وحاولت احتضانه مهدئة، إلا أنه تملص مني وأسرع إلى غرفته فصفق بابها خلفه وهو يبكي.

قالت نيللي بوجه شاحب:

- والله يا ماما لم أفعل له شيئًا.

كانت نيللي تستفزه في أغلب الأحيان، إلا أن ردة فعله تلك المرة لم تكن طبيعية على الإطلاق. انقبض قلبي وأنا أتذكر هيئته المرتبكة حينما عاد من بيت ميرفت، وبرطمان (النوتيلا) المتهشم.كلما أمعنت التفكّر في مظهره وتصرفاته آنذاك كلما تأكد لي أنه لم يكن مجرد تعب، كان ابني قلقًا حين عاد.

ترى لماذا؟

ما الذي رآه أو سمعه هناك؟

اتجهتُ إلى غرفته عازمة على استنطاق الحقيقة منه وإن راوغني، ولكن ما قاله فاق كل توقعاتي!

***

- 19 -

تفاهة

خرجتُ من غرفة ابني إلى غرفتي وعلى رأسي الطير مما سمعت.

شلّت الصدمة تفكيري ولساني، واختلطت محتويات رأسي ككوب عصير كوكتيل معتبر. كنت أحتاج للاختلاء بنفسي قبل أن أقرر ماذا سأفعل إزاء ما سمعت.

كنت قد وعدتُ زيد في البداية أن ما سيخبرني به سيبقى سرًّا بيننا. ولكن بعدما سمعتُ ما سمعت، لم أكن واثقة بقدرتي على الإيفاء بالوعد الذي قطعت.

أربكني دخول نيللي المفاجئ وهي تهتف في حماسة:

- ماما انظري ماذا فعلت...

لم تنتظر ردي بل جلست بجواري ومدت ورقة نحوي قائلة:

- أعددت جدولًا زمنيًّا لليلة الحادث، هذا العمود للزمن، وهذا العمود لألوان طيف سما، وهذا لِطَيف المجرم، والعمود الأخير لموقع كل منهما في الشقة.

- اممم

لاحظت نيللي شرودي فقالت في حنق:

- ماما، ركزي من فضلك.

- لا أستطيع.

- مغتاظة كعادتك بسبب خروج بابا للقاء أصدقائه على القهوة، متى ستكفين وتعتادين؟ بابا من حقه أن يخرج كما تعلمين.

- وهل خرج أبوك؟

- ألا تعلمين؟

سألتني في استرابة،

- فيم أنت سرحانة إذن؟

- وعدتُ ألا أقول...

- ماماااااا

صاحت في تذمر، ثم ضيقت عينيها ورمقتني بنظرة متفحصة قبل أن تقول بلهجة العليم ببواطن الأمور:

- إنه زيد، لقد أخبرك بشيء ما، أليس كذلك؟ شيء رآه أو سمعه عند طنط ميرفت.

- وهل كنت تتنصتين علينا؟

هتفت في انتصار:

- أنا محقة، أخبريني إذن.

ترددتُ في إفشاء السر، فدكّتْ آخر دفاعاتي بقولها:

- أقسم لك أنني لن أقول شيئًا، ولكننا شركاء في هذا الأمر من البداية، يجب أن تخبريني.

عبارتها كانت تحمل وجاهة ما، كما أنني كنت بحاجة لمن يشاركني هذا الحمل، وبرغم صغر سنها، إلا أنني كنت أثق برجاحة عقلها.

هكذا... خفضت صوتي قدر الإمكان وأخبرتها:

- حينما كان زيد في شقة ميرفت، طلَبَت منه أن يرص كتب سما في أحد الصناديق في الصالة، بينما تفاهة كان يفرغ خزانة ملابس الفتاة...

- ها؟

- بالصدفة رفع زيد رأسه فرأى تفاهة في مرآة الصالة من حيث لم يره هو...

- هاااا

- رآه وهو يفعل شيئًا... شاذًّا

- ما هو يا ماما؟

ارتعش صوتي وأنا أكمل في خجل:

- رفع قطعة من ملابس سما الداخلية إلى أنفه وأخذ يتشمّمها، ثم قبّلها بشكل محموم قبل أن يدسها أسفل ملابسه وكأن شيئًا لم يكن.

أنهيتُ كلامي وأنا ألهثُ من التوتر، ففاجأتني نيللي بضحكة عالية وهي تقول:

- أهذا كل ما في الأمر؟

- نعم يا نيللي...

أجبتها، ثم سألتها مصدومة من ردة فعلها:

- أهو أمر عادي؟

فأجابت في خجل:

- لا أبدًا، تصورت أن زيد رأى شيئًا مخيفًا أكثر، ولكنه ليس أمرًا عاديًّا بالطبع.

- هل تظنين أنه...

- أن تفاهة هو المجرم؟ ولمَ لا؟ قد يكون تفاهة في حقيقته مهووس جنسيًّا بسما، وبعد أن قتلها وتخلص من جثتها، اكتشف أنه لم يحتفظ بشيء منها، فأراد تذكارًا، ثم إننا لا نعرف إن كانت قد اغتُصبت قبل القتل أم لا، ربما كان هذا سبب اختفاء الجثة...

كانت تتكلم وعيناها تلمعان من الإثارة، بينما استمعتُ إليها أنا بفم مفتوح وعينين متسعتين على آخرهما غير مصدقة الأريحية التي تكلمت بها ابنتي عن أمور بتلك البشاعة. لاحظت هي تحديقي فيها فسألتني:

- ماذا؟

- أنت لا تزالين في الرابعة عشرة من عمرك.

رفعت سبابتها مصححة:

- سأتم الخامسة عشرة بعد شهرين.

- ولو كنت في العشرين، لا أصدق البساطة التي تتكلمين بها عن تلك الأمور.

- ماما تعلمين أني لست فتاة الإعدادي الساذجة.

- ليست السذاجة هي ما أطالب به، بل قليلًا من الحياء.

- نحن نناقش جريمة، يجب أن نستخدم الألفاظ العلمية السليمة، وألا نغفل أي احتمالات، وإلا لن نصل إلى شيء.

لن نصل لشيء فعلًا، هكذا قلتُ لنفسي وأنا أعرف خير المعرفة نهاية هذا الحوار الذي لا طائل منه.

قالت:

- المهم الآن، هل ستخبرين الشرطة بما رأى زيد؟

- ماذا؟

- ألن تفعلي؟ ولكن تفاهة قد يكون مشتبهًا به، خاصة وأنها المرة الأولى التي لا يسافر فيها البلد مع أسرته.

- ولكن...

- ماذا؟

سألتني في نفاد صبر فأجبتها مترددة:

- وعدت زيد ألا أخبر أحدًا بما رأى، لن يثق في ثانية. كما سيضطر للوقوف أمام الشرطة وإعادة حكايته وهو...

أكملت عبارتي في سأم:

- مصاب برهاب البشر ولا يحب الاحتكاك بالناس، أعلم، ولكننا نتكلم عن مجرم وقاتل يا ماما.

- ألم نتفق أنه حمدي؟

- نعم، قبل أن نعرف ما فعله تفاهة. أما الآن، وبعد أن تأكدنا من الأطياف أن سما كانت تعرف الجاني، تفاهة مرشح بقوة ليكون هو.

- ألم نتفق أن الأطياف غير دقيقة بسبب سخونة المكواة، لماذا تستشهدين بها الآن؟

تذكرتُ شيئا فهتفتُ:

- انتظري، إن كانت سما قد تعرفت على الجاني، لماذا لم تذكر اسمه لأبيها في مكالمة الاستغاثة إياها؟

ارتج الأمر على ابنتي فلم تجد إجابة، ارتبكت وأخذت تراجع ما دونته في الجدول ثم قالت:

- ربما ذكرته...

- ثم؟

- لم يذكره أبوها لنا لسبب ما، خائف من الفضيحة مثلًا، خاصة إذا كانت اغتُصبت كما أتوقع، أو ربما يتستر على المجرم لسبب ما، تهديد أو ابتزاز.

- يا سلام! تهديد وابتزاز من تفاهة؟

- ماما، نحن لم نسمع المكالمة، لا أحد يعرف ما دار بها سوى عمو فتحي...

- وكيف ارتكب تفاهة الجريمة في تصورك؟ طرق الباب بعد منتصف الليل ففتحته سما ورحبت به وأدخلته؟

صمتت نيللي تتخيل ما قلته للحظة، ثم قالت معترفة:

- لا أظن ذلك، سما لم تكن ترتاح إليه، كان يحدق بها كلما رآها، ويصر أن يحمل عنها حقيبتها عند عودتها يوميًّا، برغم خفة الحقيبة ورفض سما المتكرر.

- إذن ماذا حدث في رأيك؟

- ربما طرق الباب، وتحجج بأي حجة، أو طلب منها ماء مثلًا أو سكر، فتركته على الباب ودخلت كي تجلب له طلبه، فتبعها وحاول التهجم عليها، فصرخت ودفعته، ففقد أعصابه وضربها حتى الموت، ثم أدرك فعلته، فسحب جثتها وأخفاها...

- أخفاها أين؟ هنا في العمارة؟ لقد فتشها رجال الشرطة جيدًا، وتفاهة لا يملك سيارة كي ينقل بها الجثة.

- ولكن صديقه جامع القمامة لديه عربة (كارو) يجرها حمار، مثالية هي لأنها بلا صوت، إن وضع عليها الجثة وسط عدة أغراض وأخفاها بقطعة قماش لن يشك به أحد.

- خيالك واسع جدًّا...

- واسع أو ضيق، المهم يجب أن نبلغ الشرطة بأمر تفاهة.

قالتها نيللي وتركتني غاضبة، تتهمني نظراتها بالسلبية والتقصير.

ربما كانت محقة في غضبها، ولكن قلبي لم يكن مرتاحًا لإبلاغ الشرطة...

أحكي لكم هذا الآن وأنا مستغربة أنني أنصتُ حينها لصوت قلبي. قلبي الذي نحيته عن قراراتي منذ زمن. ولكن يبدو أن قلبي كان على حق. ولذلك، وبعد أن عرفت الحقيقة كاملة، تذكرتُ تلك اللحظة، وقررتُ أن أوكل قلبي في كل أموري، وأن أترك له ناصيتي ليكون هو البوصلة، ليأخذ هو القرارات ثم يقوم عقلي بتنفيذها كموظف لا يحق له الاعتراض!

***

- 20 -

المشتبه بهم!

بعد حديثي مع نيللي، لُذتُ بغرفتي، وعلى فراشي تمددت أفكر في كل الاحتمالات...

إن كانت الأطياف محقة، لن يخرج القاتل عن اثنين: حمدي أو تفاهة.

ثم تذكرتُ كلمة لنيللي أوحت لي بفكرة وفجرت لدي سؤال: ما الذي قالته سما لأبيها في المكالمة التي استنجدت به فيها؟ هل أخبرته باسم المجرم؟

طفت إلى رأسي عبارة كانت قالتها ميرفت منذ فترة. كنا قد اجتمعنا معًا في خطبة ابنة أحد الجيران فوق سطح العمارة. وكانت الحاجة فوقية تناقش بتلذذ واقعة قتل امتلأت بأخبارها صفحات الحوادث. أب قتل ابنته والمجرم الذي اغتصبها. كان اغتصابًا ولم يكن علاقة بالتراضي، ومع ذلك قتل الأب ابنته. بالنسبة لي كان حادثًا مفجعًا. قلت بحزن:

- وما ذنب الفتاة؟ بدلًا أن يذود عنها أبوها ويثأر لها، يقتلها!

لم أنسَ رد ميرفت وهي تقول بأكبر قدر من الغلّ والتشفي:

- لقد غسل عاره بدمائها، حتى وإن كانت مظلومة، كلام الناس لم يكن ليرحمه. ثم لماذا سيغتصبها مجرم دون سابق معرفة؟ بالتأكيد بينهما علاقة شجعته على ذلك، أي أن الفتاة مذنبة بشكل أو بآخر. صدقيني، هي تستحق ما حل بها. والأب لم يكن أمامه أن يفعل سوى ما فعل. أنت لا تعلمين شيئًا عن بنات هذه الأيام.

ثم أشارت من طرف خفي لسما وهي تقول في مرارة:

- اسأليني أنا...

انقبض قلبي وأنا أتساءل إن كان الأمر كذلك؟ هل لبى الأستاذ فتحي استغاثة ابنته فوجد المجرم قد اغتصبها؟ ربما حاول قتله فهرب، وشجعته ميرفت بأفكارها البالية وكرهها للفتاة أن «يغسل عاره

بدمائها» كما قالت. ثم تعاونا في إخفاء الجثة ثم أبلغا الشرطة دون أن يشك في فعلتهما أحد؟

حينئذ، اعترفتُ لنفسي في حزن: إنهما ليسا اثنين من المشتبه بهم، بل ثلاثة...

*

كنتُ أشعر بالمسئولية كوني أعرف أشياء لا يعرفها غيري، قررتُ أن ألعب دور المحقق، مرة من نفسي بعد أن كان فاضل يستحوذ عليه دائمًا! كنت مؤمنة تمامًا أنني سأكتشف المجرم بنفسي وأساعد الشرطة في القبض عليه.

قررتُ البدء بتفاهة، فهو الذي في يدي حاليًّا...

ناديتُ عليه من الشرفة وطلبت أن يصعد لي، انتظرته على باب الشقة وسرعان ما ظهر على الدرج قائلًا:

- أمرك يا مدام.

- تفاهة لماذا لم تسافر مع أهلك للبلد؟

- أبي ترك لي بعض الأعمال لإنهائها.

- لم أرك سوى بالأمس، أين كنت أول وثاني أيام العيد؟

بدا عليه الضجر من أسئلتي فاكتسب صوته نبرة ملولة وهو يجيبني:

- عند خالي في غمرة، صليت معه العيد ثم أمضينا اليوم معًا.

- ومتى عدت؟

- بتُّ الليلة عندهم وعدتُ اليوم التالي.

- متأكد؟

شحب وجه تفاهة المتورد دائمًا وسأل بصوت مرتاب:

- لماذا تسألين يا مدام؟ ماذا حدث؟

- كنت أريد سؤالك عن المجرم الذي اقتحم شقة الأستاذ فتحي، ربما رأيت غريبًا يحوم حول المكان.

أجابني في مرارة:

- يا مدام، البواب والشغالة هم أول المتهمين في أية جريمة. اطمئني، لقد استجوبتني الشرطة بقسوة ولم يجدوا ما يدينني فأخلوا سبيلي، خالي شهد بقضائي اليوم معهم، كما شهد رواد القهوة المقابلة لبيته أننا سهرنا فيها حتى الفجر.

تلعثمتُ وأنا أقول:

- لم أقصد شيئًا يا تفاهة، أردت أن أوصيك أن تفتح عينيك جيدًا، ربما يعود المجرم في أي وقت.

- أمرك يا مدام.

قالها في استسلام ونزل الدرج، فأخرجت نيللي رأسها من خلف الباب قائلة في خيبة أمل:

- إنه صادق يا ماما، طيفه بدأ رماديًّا ثم تحول مع أسئلتك إلى الأسود ثم الأزرق، ولكن البني لم يظهر أبدًا.

- أظن أنه لا داعي لإبلاغ الشرطة بما رآه أخوك وإحراج الشابين بلا طائل.

أومأت نيللي برأسها وقد ظهرت أمارات الإحباط على وجهها الجميل، ثم عادت فقالت:

- إذن هو حمدي.

- نيللي، انتهينا.

- ماذا؟

- واضح أن الشرطة قامت بدورها على أكمل وجه في التحقيقات.

- ولكن التطبيق، والأطياف؟ نحن نعلم ما لا يعلمون.

- هكذا تظنين، لكنك متوهمة، سأذهب لأطمئن على زيد.

تركتها وابتعدت. لم أذهب لزيد، بل اختليتُ بنفسي في المكان الوحيد الذي أملتُ ألا يخترق خصوصيتي فيه أحد؛ الحمام. أحكمتُ إغلاق الباب من خلفي، أنزلتُ غطاء المرحاض وجلستُ عليه متفكرة. انشغل بالي بزيد وما رآه، كان يجب علي احتواء الأمر نفسيًّا معه ولكنني عوضًا عن ذلك انشغلت بدور المحقق المزعوم ونسيتُ مشاعر ابني!

أوقفتُ صوت جلد الذات المتصاعد بداخلي وتساءلتُ كيف يمكنني معالجة الموقف؟ ولجتُ إلى مجموعة دعم الأمهات على (الواتساب)، كتبتُ لهن- بأكبر قدر ممكن من التورية - ما رآه ابني ذو الأحد عشر عامًا وطلبت منهن النصح.بدأت الرسائل تتوالى، أشاروا علي بالقراءة أولًا عن توصيف طبي لحالة تفاهة، ثم شرحها بألفاظ مبسطة لزيد، حذروني من إطلاق أي أحكام على الفتى، كما حذروني منه، مؤكدين أن هذا السلوك قد يكون مقدمة لأفعال أسوأ كالتحرش، إن لم يكن يقوم بذلك بالفعل. انزعجتُ لهذا الاحتمال، وقفزت ابنتي إلى مخيلتي، ترى هل تعرضت نيللي لمضايقته؟ حاولت طمأنة نفسي بأنها قوية وقادرة على مواجهة أمثاله، على الأقل ستحكي لي إن حدث شيء ما...

أو هكذا تمنيت!

*

فعلتُ مثلما نصحنني أمهات مجموعة الدعم، تصفحت المواقع النفسية بحثًا عن تحليل مبسط لحالة تفاهة يُمكّنني من شرح ما حدث لزيد بشكل غير مخل. مهمة موترة دعوتُ الله كثيرًا أن يسهلها علي وقد كان.

انتهى اليوم بشكل حانٍ بعد أن خضتُ مع زيد حديثًا طويلًا مليئًا بالأسئلة والتفاصيل، انتهى بعناق دافئ أودعته كل حبي وحناني. ترك احتضانه أثرًا مرطبًا لجسدي وروحي فنمتُ تلك الليلة نومًا هنيئًا بعد ليالي الأرق السابقة...

***

- 21 -

الأثر الأخير للفتاة

الأحد صباحًا، أول يوم عمل بعد إجازة العيد...

انتبهتُ من نومي على رائحة السيجار المميزة لعطر فاضل ويده تهزني برفق كي أستيقظ.

فتحتُ نصف عين لأجد فاضل واقفًا بجواري في ملابس الخروج وحقيبته تتدلى من على كتفه.

دسّ في يدي قرصًا صغيرًا، دوائي اللعين...

ما الذي جعل فاضل يشك في أنني لا أتناوله بانتظام؟

ناولني كوبًا من الماء ووقف ينتظرني أبتلع القرص أمامه قبل أن يذهب.

وضعتُ الدواء في فمي وجرعت الماء دفعة واحدة ثم ابتسمت لفاضل، زفر زفرة ارتياح قبل أن يقبّل رأسي ويذهب.

انتظرتُ حتى سمعته يغلق باب الشقة، ثم بصقتُ الدواء في منديل ورميته.

كنتُ في خير حال، لماذا يجبرونني على تناول تلك العقاقير التي تجعل عقلي واخمًا؟

لم تعد المخاوف والأفكار السوداء تهاجمني مثل السابق، كما لم أعد راغبة بإيذاء نفسي ثانية.

أكدتُ لنفسي حينها: أنا بخير...

طرقات على باب الغرفة ثم ظهرت نيللي وفي يدها جدولها إياه:

- ماما يجب أن نتكلم.

- قلتُ لك الموضوع انتهى. إن كان هناك شيء، فستكتشفه الشرطة آجلًا أو عاجلًا.

فاجأتني بسؤالها:

- ما هو لون طيف الشخص الذي يحتضر؟

- يحتضر!

- نعم، الذي يموت، ما هو لون طيفه حين تغادر روحه الجسد؟

حيرني السؤال، وترددت في إجابته...إن نيللي تستدرجني إلى حيث تريد.

تمتمت بنبرة ممانعة:

- نيللي...

أجابتني بنبرة قوية ومحمسة:

- ماماااا، أين فضولك؟

فضولي؟

تبًّا له، إنه حي يرزق.

وهي، تدخل لي من ثغراتي، انتهزت لحظة ضعفي الواضحة...

طرقت على الحديد وهو ساخن قائلة:

- هل تظنين أن تبدل الألوان السريع لأطياف سما والمجرم في ليلة الحادث كان بسبب خروج روح سما؟ أو ربما سبّب خروج الروح من الجسد تشويشًا على إمكانات التطبيق، فالأطياف لن تخرج عن كونها انتقال شكل من أشكال الطاقة من أصحابها ولا ريب...

تفكرتُ في كلامها، متى أصبحت ابنتي بهذا العمق؟

الروح لغز لم يستطع سبر أغواره أحد، فهي من أمر الله وحده...

فهل كانت فرضية نيللي صحيحة؟

قلتُ لها:

- هذا احتمال وارد جدًّا، ولكن كيف لنا أن نتأكد؟

- بسيطة، نبحث عن شخص يموت ونفتح التطبيق بجواره ونراقب.

هذه الفتاة ستصيبني بجلطة...

- هل تتوقعين أن نكون في حضرة الموت وجلاله ثم نعبث في هواتفنا لنختبر التطبيق؟

- هذا ليس السؤال يا ماما، بل السؤال هو: من أين لنا بشخص يموت؟

تنهدت في حيرة، ثم قالت متحمسة:

- لقد عرفتُ ماذا أفعل.

واختطفت الهاتف من يدي وابتعدت، ثم سمعتُ باب الشقة يغلق.ظهرت بعد لحظات قائلة في إحباط:

- الحشرات ليست لها أطياف، لقد اقتربت بالهاتف من قمامة الدور الرابع حيث أكبر تجمع للذباب، ولكنهم لم يظهروا على الشاشة... لو كان للذباب طيف لاصطدنا إحداها وقتلناها وراقبنا ما سيحدث لطيفها.

ذباب!

أنقَذَني من الجلطة الوشيكة جرس الباب...

فتحته لأجد ميرفت تبتسم في لطف وقد ارتدت جلابية حمراء زاهية، ومن خلفها رأيتُ عدة صناديق مرصوصة في مجموعات أفقية ورأسية، امتلأت على ما يبدو بأغراض سما. انقبض قلبي وأنا أرى الأثر الأخير للفتاة يستعد لمبارحة المكان بلا رجعة.

لاحظت ميرفت نظراتي، فارتبكت وعادت إلى الوراء فحملت أحد الصناديق الصغيرة، كان ممتلئًا بالكتب والروايات، مدته إليّ قائلة:

- خذي هذا لنيللي، الفتاتان كانتا تتبادلان الكتب، وسما سيسعدها أن تنتقل كتبها إلى ابنتك، أنتم أولى من الجمعية الخيرية التي ستعامله كورق مستعمل.

هممتُ بالاعتذار عن قبول الصندوق، فأغراض الموتى دومًا ما تصيبني بانقباض. لولا أن ظهرت نيللي من ورائي فتناولته من ميرفت في لهفة.

تنحنحت ميرفت ثم أفصحت عن رغبتها:

- هل زيد موجود؟ أحتاج مساعدته.

صحتُ فيها:

- لا، ليس ثانية.

اندهشت من انفعالي فتداركت الموقف قائلة:

- أعني ليس اليوم فزيد لديه تمرين الآن ويستعد للنزول والكابتن هدد الغائبين بالفصل من الفريق.

كذبة بيضاء ارتجلتها إنقاذًا لابني وليسامحني الله...

تفهمت ميرفت الأمر فأجابت في بساطة:

- لا بأس، حينما يعود.

- طبعًا.

قلتها بابتسامة مجاملة وانسحبت، وما أن أغلقت الباب خلفي حتى قلتُ لنفسي: على جثتي، سأجد صرفة ما للهروب.

لم أكن أعلم حينها ما ينتظرنا من هروب مثالي حزين لذلك اليوم.

***

- 22 -

هروب حزين

بعد أن انتهت فقرات الصباح من دواء فاضل وذباب نيللي وطلبات ميرفت، بدأتُ في إعداد الفطور للأولاد فأتتني نيللي ثانية تقول في حماس:

- ماما، لدي فكرة نكتشف بها ألوان طيف الموتى.

نظرتُ إليها متسائلة ولسان حالي يقول: (اللهم طوّل بالي يا رب)، فأردفت:

- نذهب إلى المستشفى حيث يعمل عمي حسن، وننتظر في قسم العناية المركزة حتى يموت مريض ما.

انتظار موت أحدهم! تلك كانت خطتها...

برغم فضولي في معرفة لون أطياف الموتى، إلا أنني شعرتُ أنها فكرة لا أخلاقية.

صارحتها برأيي، فأجابتني:

- لماذا؟ وهل نحن من سنقتله؟ إنه قدره، نحن فقط سنستفيد من ذلك، وليس في حاجة سيئة لا سمح الله، بل كي نكتشف ما حدث لسما.

ذِكر اسم الفتاة أربك حساباتي، وجعلني أضعف أمام الوسيلة التي تبررها الغاية.

قلت في خنوع:

- ولكن هذه الوسيلة ستستغرق وقتًا، ربما أيامًا، فهل سنجلس على مقاعد الاستقبال تاركين كل شيء في حياتنا بانتظار موت أحدهم!

تفكرت نيللي للحظة ثم قالت في تردد:

- ليس أمامنا سوى حل واحد إذن.

- ها؟

- نترك هاتفك مع عمي حسن، نستأذنه أن يبقيه في جيبه ويتأكد أنه مشحون، وأن الإنترنت والتطبيق والتسجيل في وضع التشغيل.

وقبل أن أرد على فكرتها العجيبة قطع كلامنا رنين هاتفي...نظرتُ إلى الشاشة، كان فاضل!

شككتُ في عينيّ، منذ متى يتذكرني فاضل وهو في العمل؟أو خارجه..

وإذا اتصلتُ به أنا يرد باقتضاب وكأنني بائع لحوح يتمنى الخلاص منه للأبد، بالتأكيد مصيبة.

- فاضل، خير؟

لم يخيّب ظني:

- طنط سميرة أصيبت بوعكة صحية جديدة، الطبيب هذه المرة رفض نقلها إلى المستشفى قائلًا أنها لا تملك في هذه الدنيا سوى سويعات، لا تكفي سوى لتوديعها.

طنط سميرة! تذكرتُ عينيها الطيبتين المرهقتين، فانقبض قلبي وشعرتُ بالخواء...

- خذي الأولاد واستقلي سيارة أجرة إلى بيتها وسألاقيك هناك.

- حاضر.

أنهى فاضل المكالمة وأنا غير مستوعبة لما قال. كنا معها منذ عدة أيام، صحيح كانت تبدو متعبة أكثر من كل مرة، ولكنني لم أكن أتوقع ما قاله فاضل.

أخبرتُ الأولاد بما قاله أبوهما... تجاهلتُ لمعة عين نيللي وهاتفي الذي أسرعت بوضعه في الشحن.

احترتُ ماذا أرتدي، السواد سيكون فألًا سيئًا، ارتديتُ الرمادي، لون محايد مناسب للأحداث.

اصطحبتُ الأولاد وانتظرنا حتى وصلت سيارة (أوبر) فركبنا، زيد بجوار السائق، وأنا ونيللي في الخلف.

جو حار خانق يليق بشهر أغسطس، حاولتُ فتح النافذة ولكن السائق اعترض قائلًا إن التكييف يعمل، ربما كان يقصد التدفئة!

استسلمتُ لمصيري وأخرجتُ منديلًا أمسح به عرقي الذي بدأ يتصبب حتى ابتلت طرحتي والتصقت بجبهتي.

كان الطريق مزدحمًا والسيارة تقف أكثر مما تتحرك، قال السائق وهو ينظر لي في المرآة:

- هناك حادث على الطريق، سأحاول الهرب من الزحام بالانعطاف يمينًا.

نظرتُ إلى تطبيق الـ (GPS) فوجدت السائق محقًّا، مسارنا كان أحمر، فأومأت له بالإيجاب. بدأ يحاول الاتجاه يمينًا بحشر مقدمة سيارته بين الصفوف وسط سباب الآخرين وأصوات نفيرهم. كاد ينجح لولا أن ظهرت شاحنة عملاقة أصر قائدها أن يعاند السائق ويسد عليه الثغرة التي جاهد في فتحها. احتقن وجه سائقنا واحمر بشدة حتى بدا أنه سيفتح فمه بالسباب.

- يا حيوان يا ابن الـ @#$%

صعقتُ من جرأته في التفوه بهذا السباب في حضرتنا.

ولكن... ومن نظرته المذهولة في المرآة أدركتُ أنه لم يفتح فمه، بل سمع صوته مثلنا!

فُجع واستدار بجسده كله نحونا وقد اتسعت عيناه وظهر الارتياب جليًّا على ملامحه وهو يسأل:

- ما هذا؟

أنقذتنا نيللي بقولها:

- آسفة يا عمو، إنه مسلسل على هاتفي.

- مسلسل! أي مسلسل؟

- آآآآ (خلصانة بشياكة) أحمد مكي...

عقد السائق حاجبيه وتفكر للحظة ثم أومأ برأسه وعاد لمعمعة الطريق.

كذبة بيضاء جديدة، ولكنها أنقذتنا.

نجح السائق في الانعطاف يمينًا وبدا لنا أن الطريق أمامنا سالك، ولكن بعد لحظات فوجئنا بالسيارات تتراكم صفًّا وراء صف. وقفنا من جديد. أخرج السائق رأسه من النافذة مستطلعًا ثم قال:

- (تشريفة)، سنقف ساعات حتى يفتحوا لنا الطريق.

ثم أردف:

- يخرب بيوتكم.

نظرته المرتاعة في المرآة أخبرتني أنه لم يردف، بل أردف التطبيق!

هذه المرة لم يسألنا، بل تمتم:

- سلامٌ قولًا من رب رحيم.

ثم التفت إليّ قائلًا:

- السيارة ساخنة، سأقف على جنب. يجب أن تنزلوا. سألغي الرحلة.

لم أحاول مناقشته، ابتلعتُ ريقي وأومأتُ برأسي وترجلتُ وأولادي واتجهنا نحو الرصيف.

لم يقف السائق على جنب، بل وضع يده على البوق محاولًا الهروب وعلى وجهه أعتى آيات الرعب. ذكّرني موقفه بمشهد ملك الموت الذي زار التاكسي في أحد أفلام أشرف عبد الباقي فوجدتني أضحك بلا سبب.

رمقني زيد في دهشة، ثم بدا أنه تذكر شيئًا فسأل نيللي:

- كيف كنت تشاهدين المسلسل وليس لديك إنترنت؟

- حلقة محفوظة على الهاتف.

- ولكنه لم يكن صوت مكي، بل كان أشبه بـ...بصوت السائق!

تركتُ نيللي تقنع زيد بمزيد من كذباتها البيضاء، وانهمكتُ في محاولة طلب سيارة (أوبر) جديدة تحت شمس ظهيرة أغسطس الحارقة.كانت حبات العرق الساخن تنزل على عينيّ فتلسعها وتجعل رؤية الشاشة صعبة، وبدا من ازدحام الطريق أن أمامنا ربع ساعة انتظار على الأقل. اصطففنا وراء عمود نور التماسًا لظله النحيل، وانتظرنا.

وصلت السيارة أخيرًا وما أن ركبنا حتى تداركتُ خطئي. كنتُ -بسبب قلة خروجي منذ يوم الوقفة- قد نسيت المواقف البايخة التي كان التطبيق قادرًا على توريطي فيها لذلك أغلقتُه منعًا لأي مواقف سخيفة مجددًا. لحسن الحظ كانت السيارة جديدة ذات رائحة زكية وتكييف قوي وسائق هادئ، تنفست الهواء البارد المنبعث من التكييف في نهم، واستمتعتُ بالصمت حتى وصلنا إلى بيت طنط سميرة.

*

صعدنا إلى الشقة فوجدنا بابها مفتوحًا، وبعض الأقارب يجلسون واجمين وآخرون يتحركون هنا وهناك. سحبت مني نيللي هاتفي خلسة وانسلّت إلى حيث اجتمع أبناء عمومتها، بينما رحبت بنا أم محمود ثم همست لي قائلة:

- هل تريدين رؤيتها؟

ترددتُ، ثم قلتُ لها:

- سأترك الأولوية للآخرين.

كان ردي منطقيًّا فالأقربون هم الأولى، ولكني في الحقيقة كنتُ خائفة...

خائفة من رؤيتها على فراش الموت، خائفة من اقتحام خصوصيتها في لحظاتها الأخيرة، خائفة من شهود الحياة تتسرب من جسدها العامر بالطيبة.

بعد لحظات وصل فاضل، أخذته أم محمود من فوره لرؤية طنط سميرة. غاب لديها بضع لحظات ثم عاد واجمًا واقترب مني قائلًا:

- إن كنت تريدين توديعها فهذه هي اللحظة المناسبة.

*

تعالت أنفاسي وغاص قلبي إلى أسفل ولكنني غالبت مخاوفي وأومأت برأسي لفاضل ودخلت.

كانت طنط الطيبة مستلقية على فراشها كملاك منهك...

شعرها الثلجي أحاط برأسها كإكليل من الزهور البيضاء، بينما بدت تجاعيد وجهها أكثر عددًا وعمقًا.

رأتني.. فعرفتني.. فابتسمت..

ابتسمتُ لها بدوري وجلستُ إلى جوارها. لحظات من الصمت الدافئ مرت، سرحتُ مع قطرات المحلول الشفاف المعلق على يمينها وهي تسري في ذراعها قطرة تلو الأخرى كحبات متسارعة تتسرب من ساعة رملية تحاكي الزمن والحياة.

تزامنت القطرات في نزولها مع حركة صدر طنط الذي كان يعلو ويهبط في تتابع رتيب.

حاولت طنط رفع رأسها، اقتربتُ منها فهمست:

- أحبكم.

ابتسمتُ وربتُّ على يدها المتغضنة الباردة وهممتُ بالرد عليها، ولكنها سبقتني فأراحت رأسها وأسدلت جفنيها في وداعة.

انتظرتُ أن تفتح عينيها ثانية فلم تفعل.

نظرت إلى صدرها راجية أن يعلو ويهبط كما كان، ولكنه لم يفعل.

ارتعبتُ ولم أدر ماذا أفعل!

أوهمتُ نفسي أنها قد غفت وخرجتُ إلى فاضل، لاحظ امتقاع وجهي، فأسرع إلى الداخل، ثم سمعت صوته:

- لا حول ولا قوة إلا بالله. إنا لله وإنا إليه راجعون.

***

- 23 -

«هابياس كوربوس»

رحلت عنا طنط سميرة، وتركت لنا حزنًا هادئًا كسا المشهد.

لا أتذكر تفاصيل الساعات اللاحقة جيدًا، ولكنها كانت مليئة بالبكاء والحزن وفناجين القهوة والسواد.

ناس يدخلون ويخرجون، كفن وتغسيل وشهادة وفاة وتصريح دفن وتلاوة قرآن، وأسئلة فضولية غريبة عن اللحظات الأخيرة للسيدة. كانت لها سنوات تكافح أعتى الأمراض، ومع ذلك ظننا أنها ستبقى إلى الأبد!

أتت سيارة تكريم الموتى وحملت الجثمان إلى المسجد حيث صلينا عليها. كان المسجد ممتلئًا برغم أنها كانت صلاة المغرب في يوم عمل، أظنه رزق طنط وأعمالها الطيبة. ذهب فاضل معهم إلى الدفن بينما سبقته مع الأولاد إلى البيت. عدت منهكة وجائعة، أعددت للأولاد عشاءً سريعًا، ولكنني لم أستطع أن آكل معهما، وجدتني أرتمي على الفراش وأترك لدموعي العنان.

*

في الصباح، استيقظتُ بصداع قاتل، فتحت عينيّ لأجدها الساعة الحادية عشرة، نمت ثلاث عشرة ساعة كاملة!

لم أجد فاضل بجواري، فعلمتُ أنه برغم كل ما مر به بالأمس، قد غادر إلى عمله في موعده. رفعتُ رأسي بصعوبة عن الوسادة كي أستجيب لطرقات باب الغرفة. كانت نيللي، دخلت في استحياء وجلست على طرف الفراش قائلة في خفوت:

- ماما...

- أيوه؟

- هل أنت بخير؟

- نعم حبيبتي.

- هل أستطيع أن أريكِ شيئًا؟

وقبل أن أجيبها، رفعت لي الهاتف، مفتوحًا على شاشة التسجيل، قلتُ في هدوء:

- لست مستعدة لرؤية ما لديك.

- ولكن يا ماما...

- حقًّا لست مستعدة، أجّلي الأمر من فضلك.

انصاعت متبرمة فتركت الهاتف على الفراش وخرجت. رفعت ناظريّ أتأمل السقف وأسترجع ذكرياتي مع طنط سميرة، السيدة الجميلة التي تركت بصماتها الكريمة في حياة كل منا.

شعرتُ بالجوع يقرص معدتي، فرفعت عني الغطاء الخفيف وقمتُ مرغمة كي أبحث عن ما يسد رمقي. وقع هاتفي أرضًا، أخذته ووضعته على وحدة الأدراج بجوار الفراش، ونظرت إليه...

وطبعًا تتوقعون ما حدث!

قلقة مما توقعتُ أن أرى، ضغطت زر التشغيل بإصبع مرتعش.

كانت أطياف الموجودين تتراوح بين الأسود والأرجواني. تنهدت بارتياح مدركة أن جزءًا كبيرًا من قلقي من مشاهدة التسجيل كان خوفًا من رؤية طيف غير لائق حول طنط سميرة، طيفًا أخضر أو برتقاليًّا أو أصفر، أو غيرها من الألوان التي لا أرجو أن تكون موجودة في محيط شخص عزيز على فراش الموت.

لم أكن أريد اكتشاف أشخاص غير مخلصين بيننا.

وقد أدركتُ أيضا -مدهوشة من نفسي- أن أحيانًا كشف المستور ومعرفة خبايا النفوس قد يؤذي مشاعرنا على عكس ما نتمنى أن يكشف الله لنا الناس من حولنا.

استمر التسجيل، طيف طنط سميرة أبيض، نقاء يليق بطيبتها.

ثم ظهر شيء لم أره من قبل، نقطة خضراء صغيرة بزغت في مركز طيف طنط الأبيض، نقطة ظلت تتمدد حتى أصبح الطيف كله أخضر زاهيًا، ذلك الأخضر الذي تتلون به مساء المصابيح النيون المعلقة على المساجد. بعدها بدأ الأخضر في الانقشاع إلى الأطراف فأصبح طيفها أبيضَ محاطًا بحلقة رفيعة خضراء متوهجة. ثم بدأ طيفها يخفت ببطء حتى تلاشى واختفى تمامًا.

هذا هو طيف الموت إذن!

جلستُ على الفراش ساهمة، كانت المرة الأولى التي أرى فيها طيفًا حوله حلقة مفرغة بلون آخر، ولم أر كذلك طيفًا يبهت لونه ويختفي بهذه الطريقة حتى ينتهي إلى العدم.

دخلت نيللي فأخذت هاتفي في صمت وخرجت، ثم عادت تقول في غضب:

- شاهدته من غيري!

نكستُ رأسي في خجل فقالت متهكمة:

- أعرف ما ستقولين... إنه الفضول.

ثم قالت وقد تغلّب حماسها على غضبها:

- هل رأيت طيفها الأبيض وهو يختفي؟ لقد عرفنا الآن كيف يبدو الطيف وقت خروج الروح.

أومأتُ برأسي فأضافت مقررة:

- لا شيء في ذلك يشبه أطياف ليلة مقتل سما.

- إذن؟

- هي لم تمت في المنزل يا ماما، لقد سحبها المجرم حية.

- قالوا إنها لا يمكن أن تظل حية بعد كل ما فقدته من الدماء.

- ربما افتعل المجرم هذه الكمية من الدماء كي يوحي بموتها فلا يبحثّن عنها أحد.

- ومن أين جاء بالدماء؟

- دماء أي حيوان.

- الشرطة أكدت أن الدماء لسما.

- إذن فقد ماتت بعد أن اختطفها مباشرة، وبدون جثة لن يستطيع أحد اتهامه بشيء.

ثم مدت نيللي يديها نحو السماء وقالت بصوت تمثيلي عميق:

- (هابيااااس كوربوووس)

- هل أصبحتِ مشعوذة الآن؟

- هذه عبارة من القانون الروماني القديم يا ماما، معناها: أظهر الجثة... إنني أدعو الله أن تظهر جثة سما.

- قانون روماني! من أين تأتين بهذا الكلام؟

تجاهلت نيللي سؤالي وأردفت قائلة:

- إذا ظهرت الجثة ستنكشف كل الأسرار وستتمكن الشرطة من إدانة المجرم، فكما تعلمين...

قاطعتها أنا تلك المرة قائلة:

- No body no crime

نظرت لي فتاتي وابتسمت رغمًا عنها... وخرجت...

*

أخذتُ أفكر فيما قالته نيللي عن إظهار الجثة، ماذا قالت؟ عبارة غامضة من كلمتين، أظن الثانية منهما كانت إسقربوط!

لم أستطع إخفاء انبهاري بصغيرتي التي أصبحت موسوعة عليمة بالقانون اليوناني، أم قالت الروماني؟

أمسكت بهاتفي باحثة عما قالته ابنتي حتى وجدتها: «هابياس كوربوس». بحثتُ عن أصل الكلمة ومعناها، فلم أجد أي رابط بين «هابياس كوربوس» هذه وبين «أظهر الجثة» إلا في مجموعة قصصية لأحد الكتاب الراحلين الذي اشتهر بالكتابة للشباب. فيما عدا ذلك فإن بحثي أظهر أن «إيباس كوربس -habeas corpus» هي مذكرة قانونية صدرت في إنجلترا سنة 1679 ومعناها «إليك جسدك» وكان الهدف منها ضمان حماية الحرية الشخصية من تعسف السلطة ثم تطورت لتُعرف بحق المثول أمام القضاء.

هكذا هو الأمر إذن...

ابتسمتُ متفكرة في نيللي التي اقتبست العبارة من قصة ثم عاشت دور خبيرة القانون الروماني ودارت تتشدق بها هنا وهناك.

لا بأس جيد أنها تقرأ وكفى... هكذا قلت لنفسي، وأنا أدندن:

- No no body no crime

***

- 24 -

في المرحاض

كنتُ أنعم بلحظاتي الخاصة في بيت الراحة حينما تصاعدت طرقات شديدة على بابه.

- خير؟

- أين هاتفك يا ماما؟

- لماذا؟

- زيد حلف أنه لم يمس كيس رقائق البطاطس الخاص بي، بينما وجدت الكيس وقد صار النصف.

- وما علاقة الهاتف؟

أجابتني في نفاد صبر:

- سأعيد استجواب زيد يا ماما وأراقب طيفه.

- حاضر، سأخرج حالًا...

خرجت مسرعة لأجدها واقفة تنفخ وتتوعد زيد، مددت يدي لجيب سروالي كي أعطيها الهاتف، ولكنني لم أجده.

- هااا؟

استعجلتني في انفعال فأجبتها وأنا في حيرة من أمري:

- كان في جيبي، لا أعلم أين ذهب.

زفرت في نفاد صبر وهي تخرج هاتفها من جيبها كي تتصل بهاتفي.

- «هذا الهاتف قد يكون مغلقًا أو خارج نطاق الخدمة»

نظرت إحدانا للأخرى في تعجب، أين ذهب الهاتف؟

- هل كانت بطاريته على وشك الانقطاع؟

- لا أبدًا، كان مشحونًا.

مضينا نبحث عن الهاتف في كل مكان ولكننا لم نجد له أثرًا.

اضطررتُ للانسحاب من البحث كي أقوم بنشر الغسيل، مخافة أن تفسد رائحته من طول رقدته في السلة. كان ذلك حينما تعالى صوت زيد مناديًا:

- ماما، أين اللاصق الطبي؟

- لماذا؟

- أحتاجه للجرح في كفي، لا يريد أن يلتئم.

جرح! أي جرح؟

ذهبت إليه فوجدت شقًّا صغيرًا داميًا في كفه،

- يا حبيبي، أذلك بسبب برطمان (النوتيلا) المأسوف على شبابه؟

- لا يا ماما، بل أصبتُ به عند طنط ميرفت.

- وكيف لم تخبرني في حينها يا زيد؟

- انشغلت بـ... بموضوع تفاهة وما فعله، ثم بطنط سميرة...

قالها وقد شحب وجهه، فاحتضنته مطمئنة:

- لا بأس يا حبيبي.

تفوّهتُ بها في هدوء بينما ارتجف قلبي من الغضب وأنا أدعو في سري على من كان السبب.

*

طهّرتُ جرح زيد وضمدته ثم تركته وحملت السبت إلى الشرفة لنشر الغسيل ملبية النداء الأخير قبل فساد رائحته.نشرتُ سروالًا تلو الآخر في آلية، قبل أن أكتشف فعلتي...

أدركتُ المصيبة حينما سحبت قطعة غسيل فخرجت في
يدي ورقة مبتلة تآكلت أطرافها وتداخلت ألوانها، اتسعت عيناي وأنا أميز فيها جدول نيللي الذي دونت فيه أطياف وتحركات ليلة الحادث.

مسدت الورقة قدر الإمكان ثم أخفيتها أعلى الخزانة الخشبية في الشرفة علها تجف، راجية الله ألا تتذكرها نيللي أو تسأل عنها.

أنهيتُ الغسيل وعدت إلى غرفة الجلوس لأجد نيللي تأكل ما تبقى من رقائق البطاطس في هدوء وهي تتابع إحدى حلقات مسلسلها المفضل.

مررتُ بزيد في غرفته فوجدته مشغولًا باللعب على منصة الألعاب الإلكترونية في حماسة.

حانت لحظة عودتي إلى بيت الراحة في أمان.

دخلتُ ونظرت بحب إلى قاعدة المرحاض التي ستحتضنني، حيث سأجلس في دعة وأمان لبضعة دقائق بدون مقاطعة.

كان قاع المرحاض يبرق فشعرتُ بالفخر، معترفة لنفسي في خجل أن هذا البريق لهو مستوى من النظافة أعلى من المعتاد في بيتي، يبدو أن أم عبده قد صارت تستخدم منظفات أقوى مؤخرًا.

ثم انقبضت أحشائي وأنا أدرك أن هذا البريق مبالغ فيه، لا يمكن أن يكون لقاع المرحاض!

غزت البرودة أطرافي وأنا أحدق في الشيء اللامع الراقد بالقاع.

لقد كان هاتفي.

*

عادت لي ذكرى الموقف دفعة واحدة، لقد كان في جيبي أثناء جلستي السابقة التي استعجلتني فيها نيللي، لا بد أنه انزلق من جيبي واستقر في القعر ولم أنتبه بسبب استعجالي.

ارتفع صراخي يصم أنحاء المنزل، أتت نيللي ثم تبعها زيد وعلى وجهيهما ملامح القلق الشديد، نظروا لي متسائلين فقلتُ نائحة:

- هاتفي الجديد يرقد في قاع المرحاض.

اختفى زيد كعادته في الهروب من تلك المشاهد بينما بدأت نيللي وصلة تأنيب ساخنة.

اكتشفتُ أنني ظلمت زيد، وأنه لم يتهرّب، بل عاد وقد ارتدى كيسًا بلاستيكيًّا في يده، مدها وأخرج الهاتف ووضعه على حافة حوض الاستحمام تقطر منه المياه وتتجمع في بركة صغيرة أسفله.

نظر لي زيد في فخر المنقذ الباسل، ربتُّ على كتفه في امتنان محاولة إخفاء أساي.

حذت نيللي حذو أخيها فعادت وقد ارتدت أكياسًا هي الأخرى في يديها، فتحت الهاتف وأخرجت منه البطارية وقالت بأسلوب الخبير:

- يجب أن يرقد في الأرز لعدة أيام، سيعمل لا تقلقي.

بأكتاف متهدلة ووجه بائس، ملأتُ إحدى العلب البلاستيكية بالأرز، ثم دسست فيه الهاتف، وأحكمت إغلاق العلبة. أخذتها مني نيللي قائلة:

- سأضعها في الشمس في الشرفة.

شكرتها ثم.... آآآ الشرفة!

دعوتُ الله ألا تكتشف جدولها المهترئ، ثم ازداد بؤسي ويأسي حينما تذكرت التطبيق.

ترى هل سيعمل بعد ما حدث؟ وماذا إن لم يعمل الهاتف، هل سأستطيع إنزاله بنفس الخواص على هاتف آخر؟

انسابت دموعي على وجنتي وأنا أفكر في الأشياء الكثيرة التي كنت أنتوي استخدام التطبيق فيها، يا فرحة ما تمت...

تعالى صوت نحيبي وأنا أدرك أنني لم أر ما يكفيني من الوردي مع فاضل، كنت أريد أن احتفظ بمخزون من أطيافه الوردية تعينني على جفاء الأيام معه...

ولكن... ضاع كل شيء.

هكذا فكرتُ في تعاسة، دون أن أدرك أنني أنا لاحقًا من ستصنع لحظاتها الوردية وتصدقها دونما الحاجة للتطبيق!

*

مر باقي اليوم في هدوء لم أعتده. فبرغم الرغبة الملحة التي كانت تجتاحني كل عدة دقائق لتفقد الهاتف ومتابعة الرسائل الواردة على مختلف التطبيقات، إلا أنني كنت سعيدة بمقاومتي الإجبارية للإدمان، ومدركة لأعراض انسحاب متابعة تطبيقات التواصل الاجتماعي من دمي بصعوبة تشبه انسلاخ الإنسان من جلده.

تجربة صعبة ولكنها مجدية.

أنهيتُ مهامي المنزلية لأتبين أنه لم يزل لدي وقت طويل في اليوم، أطول بكثير من مهامي. كانت حرارة الجو قد انكسرت، فقررت (التمشية) قليلًا، عرضت على الأولاد مرافقتي، ولكنهم فضلوا رفقة شاشتيهما.

وكالعادة في مدخل العمارة، وقبل بلوغي لباب الخروج استوقفتني الحاجة فوقية، أدركتُ من نظرة عينيها أنني مقبلة على استجواب وما سيتخلله من فقرات الغيبة والنميمة المحببة لها.

حاولت الفرار منها -كعادتي- إلا أنها تمكنت مني - كعادتها - فحيّتني ثم سألتني:

- هل صحيح أن ميرفت تخلصت من أغراض سما كلها، وأسكنت عادل غرفة الفتاة؟

حاولتُ تذكر الإجابات الدبلوماسية التي لا تشي بالكثير وفي نفس الوقت لا تحتسب كذبة، لم تكن العبارات على غرار «ربنا يولّي من يصلح» أو «ربنا يعمل ما فيه الخير» عبارات مناسبة، ولكن الرد على السؤال بسؤال كان دومًا من الإستراتيجيات الناجحة للهروب من الأسئلة غير المرغوب فيها، لذلك سألتها:

- من قال لك هذا؟

ولكن على من؟! أجابتني قائلة:

- أنت تعلمين ذلك جيدًا، فابنك قد مد لهم يد المساعدة، بل وظفرت ابنتك بصندوق الكتب.

لو كنا في رواية 1984 للكاتب «جورج أورويل» لكانت مدام فوقية هي الأخ الأكبر لعمارتنا بامتياز، ولو اخترتُ لها رمزًا لكان عينًا واحدة كبيرة ذات رموش مدببة وبؤبؤًا يتحرك في كل الاتجاهات.

انتقلتُ لخط الدفاع الثاني فنظرتُ سريعًا إلى ساعة يدي المتخيلة ثم قلت لها في استعجال:

- آسفة يا حاجة، سأتأخر على موعدي، السلام عليكم.

وفررتُ من أمامها قبل أن تتمكن من الاعتراض.

انطلقتُ أمشي في الشوارع المحيطة على غير هدى. فبرغم قدم المنطقة إلا أن شوارعها نجحت دائمًا في سلب لبي بلقطات جمالية حميمة، فمنشية البكري قد رقصت دائمًا على السلم ففازت بالحسنيين، جاورت مصر الجديدة فسعدت بالاسم الراقي والسمعة، وتاخمت مناطق شعبية أكثر فباءت بالدفء والتآلف البشري...

تصاعدت رائحة البن المطحون حديثًا من محل عم عطوة، ومعها تصاعدت رائحة الحبهان والمستكة والقرنفل... «تحويجة» البن لديهم لا مثيل لها. استنشقت الرائحة فملأتُ بها صدري، وتابعتُ المشي.

كانت أشجار «البونسيانا» الباسقة قد ناءت بحملها من باقات زهورها الحمراء فجادت بالكثير منها لتفرش الطريق ببتلاتها الزاهية. وبرغم حر أغسطس القائظ إلا أن نسيمًا خفيفًا قد هب فجعل الأغصان تتراقص مصدرة صوتًا رقيقًا، بينما انسابت رائحة مسك الليل مع عبير الياسمين من سور بيت الحاج شلبي فملأت الأجواء بشذاها الهادئ الخلاب.

لكم من المرات تمشيتُ في هذه الشوارع، لكن حواسي لم تكن بهذه اليقظة والقدرة على الاستقبال. كنت دومًا أمشي مسرعة، منكبة برأسي على شاشة هاتفي منفصلة عن العالم من حولي.

- يا حيوان.

انتفضتُ على الصوت وظننتُ أنها ورطة جديدة من التطبيق، ثم أدركتُ أنه قد ولّى وولت أيامه.

تلفتُّ حولي باحثة عن مصدر الصوت فوجدت فتاة في العشرينات تكيل السباب لرجل من سن أبيها متهمة إياه بمضايقتها، تصاعد صوت الرجل وهو يتهمها بالتبلّي عليه، كان يتكلم باستخفاف بينما احتقن وجه الفتاة وامتلأت مقلتاها بالدموع. لم أحتج للتطبيق كي أتأكد أن الرجل مدّع كذّاب.

حينما يشحذ المرء حواسه ويطلق لها العنان، تكون له قرون استشعار وبوصلة نحو الحق والجمال.

هكذا انضممتُ للفتاة وتعالى صوتي مدافعة عن حقها في المرور بأمان، حق الطريق الذي كفله لنا الشرع ومن بعده القانون ولكن قليل من يؤدي حقه!

***

- 25 -

جنون...

مرت ثلاثة أيام من النوم في الأرز...

وأعلن فاضل بعد عودته من العمل مساء، أن الوقت قد حان لتجربة الهاتف. استخرجناه من الأرز وفتحناه. ظلت شاشته سوداء فأشحتُ بوجهي عنه في يأس.

بعد لحظة صاحت نيللي في حماس إذ فاق الهاتف من سباته فجأة، وأضاءت شاشته بالضوء المعهود. أخذه مني فاضل قائلًا:

- دعيني أرى.

أخذ فاضل يجرب بعض الخواص، فوجد استجابة الهاتف ضعيفة فقال:

- الهاتف يحتاج إلى...

ومد إصبعه نحو أيقونة «العودة إلى إعدادات المصنع».

صرخت أنا ونيللي في نفس اللحظة:

- لاااا.

أتت صيحتنا متأخرة، فعّل فاضل الأمر بالفعل وهو ينظر لنا مدهوشًا بسبب انفعالنا.

- لماذا لم تنتظر حتى نتأكد من ضرورة تلك الخطوة؟

- لا تقلقي، سأقوم بتحميل كافة التطبيقات لك، بعد أقل من ساعة سيكون هاتفك جاهزًا.

مالت نيللي عليّ هامسة:

- فقدنا التطبيق.

سألها فاضل:

- ماذا تقولين؟

- لا شيء.

انهمك فاضل في تحميل التطبيقات بينما وضعت يدي على خدي أنتظر في كمد...

*

بعد قرابة الساعة ناولني فاضل الهاتف قائلًا في زهو:

- ها هو... كالجديد.

قبل أن أمد يدي كانت نيللي قد التقطته وابتعدت قائلة:

- لحظة سأرى شيئًا.

ثم عادت وعلى وجهها ملامح الإحباط فأدركتُ بقلب حزين أننا فقدنا التطبيق بالفعل.

ذلك العزيز الذي توحدنا معه لأيام، ذهب مع الريح...

أخذتُ منها الهاتف وتفحصته ثانية على أمل أن تكون مخطئة، ولكن شاشة تطبيق الـ (GPS) كانت خالية تمامًا من الأطياف.

جلستُ والوجوم يخيم عليّ، أتذكر مغامراتي مع التطبيق، والمفاجآت التي كانت تغضبني منه، والتي أشتاق الآن لواحدة منها.

أشتاق لصوت غريب مفعم بالمشاعر ينبعث من هاتفي فجأة فيقلقني ويقض مضجعي.

أشتاق لذلك الصديق الذي رافقني فكان عيني التي أرى بها وأذني التي أسمع بها.

أحيانًا من غرابة الأمر...

أتخيل أنه لم يحدث قط!

*

لاحظ فاضل وجومي فسألني عما بي. حاولتُ التهرّب والتورية، ولكن يبدو أن زوجي كان يعمل محقق مباحث سابقًا، إذ إنه في بضع دقائق نجح في أن يجعلني أفضي له بالأمر برمته...

حكيتُ له في جذل عن التطبيق وأطيافه والمشاعر المختلفة وألوانها، والمواقف المضحكة والمحرجة التي مرت بنا بسببه. تعالت ضحكاتي وأنا أحكي موقف ميدو وأمه في حمام طنط سميرة، وخفت صوتي وكساه الحزن وأنا أحكي له عن لحظات طنط سميرة الأخيرة.

في الحقيقة... استمتعت كثيرًا وأنا أحكي. فاضل وأنا مصابون بالخرس الزوجي منذ سنوات، قلما وجدنا موضوعًا للحوار بعيدًا عن مشاكل الأولاد واحتياجات المنزل، وها هو الموضوع قد جاء بتفاصيله وتشعباته و(سلطاته وحبشتكناته) ليخلق لنا مجالًا شيقًا للحوار.

أنهيتُ حكايتي بابتسامة كبيرة وتطلعتُ إليه بانتظار تفسيره العقلاني للأمر. بل لم أكن مهتمة بالتفسير، أردتُ فقط أن نتكلم.

نظر لي فاضل نظرة غريبة لم أفهمها، ثم سألني..

سألني بنبرة صارمة آخر سؤال كنت أتوقعه، وأبعد سؤال عن الموضوع:

- صفاء... هل توقفتِ عن تناول الأدوية ثانية؟

- ماذا؟

أجاب في نفاد صبر:

- لقد تكلمنا في هذا الأمر مرارًا، ولم نكد نهنأ بتخلصك من اضطراباتك وانتظمت أفكارك.

تسللت البرودة إلى قلبي وأنا أسأله بصوت مرتجف:

- ماذا تقصد؟

زفر وهو يؤنبني:

- أنت أمّ يا صفاء ولديك مسؤوليات تجاه أولادنا، يحتاجون أمًّا واعية تتعامل بواقعية، لا امرأة تعيش في عالم من الخيال والهذيان.

هذيان!

انسابت دموعي رغمًا عني وفاضل يرمقني بنظرته اللائمة، قلت له متوسلة:

- اسأل نيللي.

- نيللي، حتى هي أقحمتها في خيالاتك وهلاوسك، استفيقي يا صفاء، كل ما قلته هذيان وأضغاث أحلام.

قالها بغضب، ثم زفر زفرة يأس وأخذ هاتفه وغادر غرفة الجلوس. سمعتُ باب غرفتنا يغلق، تحاملتُ على نفسي وجررتُ قدميّ اللتين صارتا تزنان أطنانًا، واقتربت من باب الغرفة أسترق السمع.

- دكتورة سهر موجودة؟

- .....

- صلني بها أرجوك

تحول كلامه لهمس غير مسموع، لم أستطع السيطرة على نفسي، فتحتُ الباب عنوة وصرخت فيه:

- ماذا تقول لها؟ تخبرها أن زوجتك قد جُنّت؟ أنا صرت مجنونة يا فاضل؟

ارتبك فاضل لدخولي ووضع كفه على سماعة هاتفه، ثم زفر بقوة وهو يرميه على الفراش قبل أن يستدير نحوي، ويحدجني بنظرة طويلة...

ويرحل...

نظرة حمّلها بكل اليأس والغضب واللوم الممكنين.

نظرة بائسة كاوية لاسعة كألف جلدة..

رماني بها...

ثم غادرني ورحل.

*

لم أدرِ كم من الوقت مر عليّ وأنا أبكي، ساعات طويلة من النحيب بللتُ فيها وسادتي وفراشي وملابسي. كنت أبكي وأنعى أشياء كثيرة لا حصر لها...

زوجي وحياتي وعقلي وقلبي وأبنائي وأحلامي، كنت أنعى أمسي ويومي وغدي...

كيف خدعتني نفسي وأوهمتني أني بخير، كيف نسج لي عقلي وهم التطبيق بكل هذه التفاصيل الدقيقة الحية؟

لقد كنت أرى ألوانًا وألمس مشاعرَ وأميز شخصيات وأسمع أصواتًا.

أصوات تحمل في طياتها آلامًا وآمالًا وأحاسيس مكبوتة، فكيف توهمت ذلك كله!

بل وكيف أقحمتُ نيللي حبيبتي في خيالاتي وتوهمتُ مشاركتها لي في الأمر؟

اعترفتُ لنفسي حينها أنني لم أكن بخير...

تذكرتُ نسياني المتكرر الذي سبق ذلك اليوم، ومشهد الشرفة الذي اختلقه عقلي لميرفت وحمدي، وأدركتُ أن فاضل محق، والأسوأ هو أنني لم أدرِ بنفسي هذه المرة!

في المرة الأولى، كنت واعية بتدهور حالي واكتئابي، بالصباحات التي لم أكن أقو فيها بالقيام من فراشي. بنوبات بكائي المتكررة وجسدي العاصي الذي كان يزداد وخمًا وثقلًا.

وحينما اقترح فاضل الذهاب لطبيبة نفسية رحبت، كنت أريد الخلاص من مخاوفي وأفكاري السوداء التي صارت تلتهمني صباح مساء، وحالت دونما ممارستي لحياتي الطبيعية. أردتُ الحصول على نفس هادئة وعقل رائق أربي بهما أولادي وأرعى شئون بيتي.

طمأنتنا الطبيبة أن الأمر ليس بهذا السوء، قالت في بطء:

- تحتاجين للانشغال.

استفزني تحليلها فقلت:

- الانشغال؟ أنا مشغولة بالبيت والأولاد منذ الصباح وحتى أتساقط ليلًا من التعب، ما بين مذاكرة وتمارين وطبخ وغسيل وتنظيف.

- ليس هذا النوع من الانشغال أعني، أنا أتكلم عن الانشغال الفكري، اهتمام جديد، نشاط غير اعتيادي، أمر يشعل شغفك ويشغل فكرك ويصرفك عن الأفكار التي تداهمك...

نصحتني بالبحث عن هواياتي القديمة وممارستها، وبالانخراط في نشاط رياضي جماعي، وأوصت فاضل بتخصيص وقت لنا وحدنا، كما طلبت بضعة أشياء أخرى رأت أنها ستعيدني إلى الحياة الطبيعية مع الوقت. الوقت؟ليس لدى فاضل وقت، لذلك حينما قالت هي ذلك امتعض. فاضل يحبذ الحلول القاطعة ولا يحب أنصافها، امتعض وأخبرها أنه خائف عليّ من التدهور، خاصة أن ما تطلبه يحتاج وقتًا وتخطيطًا وتفرغًا، وهي أشياء غير مضمونة كما قال، ثم طلب منها بوضوح دواءً ناجزًا. انصاعت الطبيبة بعد مناقشة طويلة مجهدة معه فكتبت لي الدواء المضمون الذي طلب، فخرج فاضل راضيًا وخرجتُ أنا متخوفة...

وبرغم الضبابية والخواء اللذين خلفهما الدواء على عقلي، إلا أنني واظبت عليه من أجل أحبائي، من أجل فاضل ونيللي وزيد.

ولكن هذه المرة كانت مختلفة...

لم تكن نوبة هذيان أنا متأكدة.

لقد كانت صحوة...

صحوة عشتها بكل كياني، صدقتها وتفاعلتُ معها.

كنتُ أصحو يوميًّا في نشاط وكأنني صغرتُ عشرة أعوام دفعة واحدة. تابعتُ التطبيق في حماس طالبة جامعية في عامها الأخير. أقبلتُ على الخروج وانخرطتُ مع الناس، كنتُ أهدأ مع الأولاد، وأكثر تفهمًا وصبرًا مع فاضل.

أحببتُ نفسي... أخيرًا...

فكيف لم ير فاضل ذلك؟

بل كيف توهمتُ أنا كل ذلك...

لم أجد في مقلتيّ دموعًا كافية تليق بعبارتي الأخيرة، فقام قلبي بالواجب ونزف عوضًا عن الدموع دمًا.

أدركتُ أن الأمر هذه المرة مختلف.

وخطير...

في نوبتي الأولى كانت نفسي هي المهترئة، أما هذه المرة، فيبدو أن العطب قد أصاب عقلي.

وإن كنت سأفقد عقلي، فعلام سأُبقي؟

سأصبح كابوسًا لأحبائي وعالة عليهم...

فكّرتُ حينها أن الإنقاذ الوحيد المتاح لهم هو الخلاص مني.

هو خروجي من المشهد بإباء، ولكن كيف؟

فكرتُ أن أنهي حياتي... ولكن إن فعلتها فإلى من سأذهب بعدها؟ إن الله هو رجائي الوحيد الباقي، لا يمكنني المغامرة بفقده.

قررتُ أن أطلب منهم إيداعي مصحة، كان حلًّا مناسبًا، سيكونون في مأمن وأنا بعيدة عنهم، وفي نفس الوقت سيتمكنون من زيارتي كل فترة، سأحميهم من نفسي دون أن أحرم منهم...

زفرتُ في ارتياح لذلك الحل، ووضعتُ رأسي على الوسادة، عازمة إخبار فاضل في الصباح. سيتمكن حينئذ من الذهاب إلى عمله ومزاولة نشاطاته ببال هادئ بعدما أطمئنه أنني لن أكون عالة عليه، ولن أسبب له أية مشاكل مجددًا...

***

- 26 -

البيوت أسرار

استيقظت برأس ثقيل وحلق محتقن من كثرة البكاء. اعتدلتُ في الفراش لأدرك أن فاضل لم يقض ليلته بجواري، كانت الساعة الحادية عشرة صباحًا، فقدرتُ أنه ذهب إلى العمل. رغبتُ في طمأنته بالحل الذي اهتديت له في الليلة السابقة كي يبدأ يومه ببال رائق. بدأتُ أبحث عن هاتفي كي أراسل فاضل حينما لاحظتُ ورقة مطوية على وحدة الأدراج بجواري، فتحتها لأجدها رسالة مقتضبة منه:

«أخذت اليوم إجازة من العمل، واصطحبتُ الأولاد للنادي كي ترتاح أعصابك قليلًا»

كي ترتاح أعصابي؟ أم لكي يحميهم مني؟

أنا أفهم طريقة تفكيره جيدًا...

أم لا أفهمه على الإطلاق؟

على أية حال، قررتُ -بما أن أيامي في المنزل باتت معدودة أنتقل بعدها للمصحة-القيام ببعض الترتيبات كي يصبح البيت أكثر راحة للأولاد. وهكذا... تحاملتُ على نفسي وجررتُ قدميّ نحو المطبخ حينما سمعتُ جرس الهاتف يرن. ليس هاتفي، بل هاتف المنزل، كنت قد نسيت رنته من قلة الاستخدام، أجبتُ بنبرة يشوبها الاستغراب:

- آلو؟

- صفاء؟

صوت نسائي مألوف...

- نعم أنا صفاء، من؟

- أنا طنط فوقية يا حبيبتي، هل يسمح وقتك بزيارة قصيرة؟

لم أكن في مزاج يسمح بالثرثرة الجوفاء حول فنجانَي قهوة، ولكنها عاجلتني بقولها:

- أريد أن أخبرك ببعض الأمور...

تهاوى قلبي بين قدمي.

بم ستخبرني؟ مصيبة فعلها الأولاد؟ أم أبوهم؟ هل اكتشفت أن فاضل يخونني؟ أم أنه قد تزوج عليّ؟ وقبل أن أجيبها سألتني:

- أتنزلين أم أصعد أنا؟

في جزء من الثانية استرجعتُ زيارتها الأخيرة لنا منذ أربعة أعوام حينما أجرينا لزيد عملية إزالة اللوزتين وتعليقها حينها على كل صغيرة وكبيرة في البيت فقلت في سرعة:

- سآتي أنا، ربع ساعة على الأكثر.

أغلقتُ الهاتف وقلبي يدق سريعًا، ترى ما الأمر؟

*

وضعتُ عليّ لباس الصلاة كيفما اتفق، ونظرتُ لوجهي في المرآة، ملامح شاحبة وعينان حمراوان منتفختان. لن ترحمني الحاجة من أسئلتها. غسلتُ وجهي ووضعت قليلًا من أحمر الخدود والكحل أخفي بهما أحزاني البادية، وذهبتُ إليها.

أدخلتني الحاجة فوقية إلى صالة مرتبة تفوح منها رائحة المنظفات والبخور، كانت الوحيدة تقريبًا في العمارة التي أبقت على بلاط الأرضية «كسر الرخام» كما هو، وكان يلمع في جمال نادر لمثله.

رحبت بي الحاجة قائلة:

- شاي أم قهوة؟

أشحثُ بيدي، كنت أرغب فقط في معرفة ما الأمر ولكنها أصرّت قائلة:

- شاي مع بسكويت الينسون الذي أجيد خبزه ويحبه كل السكان.

لم تنتظر إجابتي، بل ذهبت وعادت بعد دقائق بصينية تفوح منها رائحة البسكويت اللذيذة ووضعتها أمامي، كنت لم أزل على لحم بطني منذ اليوم السابق، ولذلك -وبرغم اكتئابي - انقضضت على ما أتت به، تأملتني باسمة، فسألتُها بفم ممتلئ:

- خيرًا؟

- صفاء يا ابنتي، أنت لا زلت صغيرة، والبيوت أسرار.

مقدمة غامضة، لم أستطع الاستدلال منها على الموضوع، سألتها في نفاد صبر:

- فاضل أم الأولاد؟

ظهرت عليها الدهشة ثم أومأت برأسها وقالت بنبرة ذات مغزى:

- سما...

- سما؟

- نعم، لاحظتُ نظراتك القاسية لي بعد ما قلته عنها يوم العزاء.

- آآ... هذا غير صحيح، كنت متوعكة و...

حدجتني في عينيّ بنظرتها الحادة فنكست برأسي قائلة:

- أنت محقة..

ثم رفعت رأسي وقلت مدافعة عن موقفي، وعن الفتاة:

- فتاة صغيرة، عاشت طفولتها دون أن يحبها أحد، ثم انتهت حياتها بميتة بشعة و...

قاطعتني:

- ليست فتاة، بل امرأة، تخطت سنواتها الـ 17 عامًا، لم تكن صغيرة.

- ولكن...

قاطعتني ثانية وهي ترفع كفها في وجهي:

- اسمعيني من فضلك.

صمتُّ مرغمة فاستطردت:

- أنت تتكلمين كثيرًا يا ابنتي، وتلاحظين قليلًا، أما أنا، فليس لدي ما يشغلني سوى...

توقفت لحظة ثم أردفت في خجل:

- ملاحظة الأمور من حولي.

ابتسمتُ وأنا أعلم جيدًا ماذا تعني، فاستطردت قائلة:

- أنت تظنين أن ميرفت أساءت معاملة سما، وأنت محقة لن أنكر، إلا أن سما لم تكن تلك الفتاة البريئة التي تظنينها. لقد أحالت حياة ميرفت إلى جحيم. سعت بالوقيعة بينها وبين أبيها، وبينها وبيننا كجيران. قالت على لسانها كلامًا كثيرًا مسيئًا، كنا نصدقها في البداية كونها طفلة لم تتعد العاشرة، ولكننا مرة بعد مرة اكتشفنا كذبها والشر الكامن في أعماقها.

ردّدتُ في مرارة:

- الشر الكامن في أعماقها؟ لقد كانت طفلة صغيرة فقدت أمها. معاملتهما السيئة لها هي التي جعلتها تضمر الشر لهما.

- بغض النظر عن السبب، إلا أن النتيجة الثابتة هي أنها كانت فتاة سيئة.

- لأنها كانت تكره زوجة أبيها؟

سألتُها متهكمة، فجاءتني إجابتها كطلقة مدفع:

- لأنها كانت كاذبة. لأنها كانت تصاحب الشباب وتدخن السجائر وتشرب الخمر.

توارت همومي خلف كلمات الحاجة واتسعت عيناي غير مصدقة:

- ماذا؟

أجابتني في تردد:

- لم أكن أريد ذكرها بسوء بعد أن خرجت من حياتنا، ولكن إصرارك على إنكار الحقيقة الواضحة أجبرني...

سألتها مبهوتة:

- ولكن... ولكن كيف عرفتِ عنها كل ذلك؟

- هل نسيتِ أن شرفتي تقع أسفل شرفة الأستاذ فتحي مباشرة؟ في أغلب الليالي يصيبني الأرق فأخرج إلى الشرفة، أجلس فيها أحيانًا حتى الفجر. كانت سما تنتظر حتى يناموا ثم تخرج إلى الشرفة تتكلم بالساعات مع الشبان، أحاديث يمنعني حيائي من تكرارها على أسماعك. كانت تدخن كل ليلة في الشرفة وترمي بالأعقاب فتقع في قصاري الزرع خاصتي. ذات مرة كانت تتشاجر في الهاتف فرمت بزجاجة لتتهشم وتقع منها شذرات في شرفتي، زجاج أخضر عليه ملصق يحمل كلمة «ستيلا»...

- والأستاذ فتحي؟

- لم أخبره شيئًا.

- حقًّا؟

- الحياة علمتني أن الستر في مثل هذه المواقف أفضل.

نكّستُ بوجهي خجلة من السيدة التي طالما ظلمتُها، فأردفت:

- سما كانت لا تزال صغيرة، أملتُ أن تكون تصرفاتها طيش مراهقة، وأن تجد ابن الحلال الذي ينصلح معه حالها.

عقّبت في مرارة:

- ولكن ابن الحرام سبقنا وأجهز عليها.

أجابتني بنبرة غامضة:

- كما قلتُ لك، البيوت أسرار، وشعاري الذي أحيا به هو: الكتمان دومًا الخيار الأفضل.

أومأتُ لها برأسي واستأذنتها في الذهاب إلى شقتي.

صعدتُ والأفكار تعصف برأسي...

لقد ظلمت الحاجة فوقية، ظننتها تسيء لسمعة سما بكلماتها يوم العزاء، بينما اتضح أنها قد سترتها شهورًا طويلة وتحملت منها الأذى دون أن تتفوه بكلمة واحدة آملة أن ينصلح حالها دون أن تضطر لفضحها. هذا إن كانت صادقة، قلت لنفسي معاندة، فما أدراني أن الحاجة كانت تقول الحقيقة، أليس من المحتمل أن تكون قد اختلقت كل هذه الأشياء كي تظهر بمظهر الملاك البريء بعد أن خاضت في سمعة الفتاة ليلة العزاء. شعرتُ بالحيرة الشديدة، ولم أدرِ حينئذ هل أبكي على حالي أم على حال الفتاة المغدورة...

وهل كانت الفتاة ظالمة أم مظلومة؟

***

- 27 -

كنتُ بخير

كنت غارقة في أفكاري حينما داهمني حنين مفاجئ للأولاد، بحثتُ عن هاتفي كي أطمئن عليهما فوجدته مغلقًا، شحنته وفتحته لأجد رسالة (واتساب) من نيللي، لا بد أنها قلقت كثيرًا هي وزيد بسبب شجاري مع فاضل وبكائي.

فتحت رسالتها، كان ملف فيديو، شغّلته...

فتملكتني رعدة مخيفة!

كان فيديو أطياف ليلة اختفاء سما.

فركتُ عينيّ غير مصدقة، هل عدتُ للتوهم مجددًا؟

أمسكت برأسي بين كفيّ شاعرة بالتشوش والتيه.

رن الهاتف، كانت نيللي، ظننتُ أنني أهذي.

- آلو؟

- ماما... أنا آسفة...

ارتج علي الأمر، لِمَ تتأسف؟ هل ظنت أنها السبب في المشاحنة بيني وبين فاضل؟ كثيرًا ما يظن الصغار أنهم السبب في الخلافات بين ذويهم، لكن نيللي كبرت على تلك الظنون، قلت:

- حبيبتي ما حدث بالأمس ليس ذنبك، ماما متعبة قليلًا، سأقضي بضعة أيام في المشفى و...

غلبتني دموعي، وعادت لي أحزاني دفعة واحدة. لم أستطع أن أخبرها أن بعادي عنهم سيكون دائمًا.

تمالكتُ نفسي وأردفت بنبرة حاولت أن أجعلها مطمئنة:

- سأكون بخير يا حبيبتي، العقل عضو يمرض كأي عضو في الجسد و...

قاطعتني في نفاد صبر:

- ماما... عقلك ليس مريضًا، التطبيق كان حقيقيًّا.

ضباب أبيض أسدل أستاره على عينيّ، وتشويش ملأ رأسي،

- ....

- الأطياف كانت حقيقية، لقد أخبرني بابا عما حدث بينكما، كان يحاول الاعتذار مني على ما أقحمتني فيه من خيالات، ولكنني أخبرته أن الأمر حقيقي، لم يصدقني في البداية ولكنه تراجع بعد أن شاهد الفيديو.

صمتُّ غير مصدقة...

غير مصدقة أنني كنت على حق، غير مصدقة أن عقلي لم يخدعني، غير مصدقة أن الأطياف كانت حقيقية.

أم هو عقلي يخدعني ثانية؟

سألتها في قلة حيلة:

- هل كان حلمًا؟

- كان حقيقة يا ماما، ألم تشاهدي الفيديو للتو؟ وكان كنزًا نادرًا لا يملكه غيرنا وقد ذهب مع الريح بسببك.

هممتُ بالرد عليها لولا أن سمعت صوت فاضل يكلمها، ثم قالت:

- بابا يريد التحدث إليك.

انتظرتُ ما سيقوله لي في وجل، إلا أنه فاجأني بعبارة هي أجمل ما قيل في الحب بين المتزوجين:

- لا تطبخي اليوم، سآتي بطعام جاهز.

أنهيتُ المكالمة وخررت ساجدة شكرًا لله.

سبحان مغير الأحوال ومبدلها من حال إلى حال...

الليلة السابقة كنت أهوي في بئر من اليأس بلا قاع، واليوم قد تبدل كل شيء!

أنا لم أجنّ ولم أفقد عقلي والأطياف كانت حقيقية...

والأهم...

أنني كنتُ بخير... وبغير دواء!

كان هذا هو اكتشافي الأعظم.

الأطياف كانت علاجي ودوائي، كانت الأمر الذي انشغلتُ به فمَلَك عليّ فكري وأخرجني من اكتئابي وأفكاري المظلمة...

*

عاد فاضل والأولاد. وفي واقعة هي الأولى من نوعها، أتى لنا فاضل بغداء من مطعمي المفضل برغم غلوه في الأسعار. لم يختر الأصناف التي أفضلها، ولكن لا بأس سأحبه... الطعام... وفاضل.

حينما انتهينا من الغداء انفردت بنيللي وسألتها:

- كيف جاء هذا الفيديو على هاتفك؟

- أرسلته لنفسي (واتساب)، حينما كنت أدرسه كي أخطط الجدول.

الجدول!

استر يا من تستر...

- ماما صحيح، على سيرة الجدول، ألا تعلمين أين هو؟

- .....

- أين سروالي الأسود؟ كان في جيبه.

- ابحثي عنه في غرفتك.

رمقتني في شك، ثم ذهبت، وبعد عدة دقائق سمعتها تصرخ من الشرفة:

- ماماااااا

لقد نجوتُ من حفرة كي أقع في فخ، ولكن يا له من فخ لذيذ، من الآن وصاعدًا سأعتبر أي فخ لذيذ بعد أن أنقذني ربي من ظلمة اليأس وجدران المصحة.

تلقيتُ من نيللي وصلة لوم وتأنيب بصدر رحب. جعلها برودي تجاهها تخفف من ثورتها فقالت في يأس:

- لقد تعبتُ جدًّا في هذا الجدول. والآن سأضطر لإعادته كله.

- ولماذا تعيديه؟

- أنا لن أستسلم حتى أكتشف المجرم، فهو لن يخرج عن ثلاث: إما حمدي وإما تفاهة...

- وإما؟

- عمو فتحي بالاشتراك مع طنط ميرفت...

- نيللي!

- الصراحة لا أشك فيهما، بل شكوكي كلها تتجه نحو حمدي، لكنني لا أستطيع إسقاطهما من قائمة المشتبه بهم دون دليل براءة قاطع.

تذكرتُ شيئًا فجأة فقلت لها:

- وهناك الشاب.

- أي شاب؟

- الذي قلتِ أنها تعرفت عليه من على «النت».

خبطت نيللي على جبهتها بكفها وهي تهتف:

- كيف نسيته؟

- هل كانت لا تزال على علاقة به؟

نظرت إليّ في غيظ قائلة:

- وكيف لي أن أعرف، ألم تمنعيني عنها؟

لم أرغب في مجادلتها فقلت منهية الكلام:

- إن كنت مصرة على المضي قدمًا في الأمر، ابدئي في خط جدول جديد قبل أن تختفي معالم القديم تمامًا، وتضطرين لاستخراج المعلومات من الفيديو ثانية.

انصاعت لي وتحركت نحو غرفتها في استسلام، بينما ناداني فاضل. آن أوان المواجهة التي كنت أتهرب منها منذ أن عادوا.

في غرفة الجلوس، ممسكًا بجهاز التحكم في التلفاز، وجدتُ فاضل ينتظرني.

جلست بجواره، فوضع يده فوق يدي وقال:

- سامحيني، لقد سببت لك وقتًا عصيبًا...

- ....

- نيللي حكت لي على كل شيء، لم يكن يجدر بي أن أشكك في كلامك. لقد شاهدتُ الفيديو على هاتفها.

التمعت عيناي وأنا أسأله في لهفة:

- حقًّا؟ وماذا ترى؟

- لا شيء...

- لا شيء! كيف؟

- هذا الفيديو ليس دليلًا على شيء.

ثم استدرك موضحًا:

- لا أقصد بخصوصك فأنا أصدق أمر التطبيق، ولكنني أتكلم عن موضوع سما.

- يجب أن نبلغ الشرطة.

لم يكن هذا صوتي ولا اقتراحي.

كما توقعتم، كانت نيللي واقفة على باب الغرفة تنظر إلينا في تحد.

أجابها فاضل في صبر نادر:

- الشرطة، وما دخلها بالأمر؟

- كي تحلل الأطياف وتتوصل إلى قاتل سما...

- وهل ستصدقنا الشرطة؟ لن يصدقوا هذا الجنون. سنزج بأنفسنا في المشاكل، وربما يظنون أن لنا يدًا في الأمر.

نظرت إلينا نيللي في غضب، لو كان التطبيق يعمل الآن لسمعناها تقول بأعلى صوت:

- جبنااااء...

وردًّا على الكلمة التي ظهرت في عينيها ولم تبح بها، قال فاضل في برود:

- لا بأس، بالجبن يؤكل العيش.

***

- 28 -

الفستان الذهبي

بعد مرور عدة أيام، كانت نيللي جالسة بجواري تتابع مواقع التواصل الاجتماعي على هاتفها، حينما أطلقت آهة خافتة، وقالت:

- اليوم هو ذكرى ميلاد سما.

انقبض قلبي لسماع الاسم، كان قد انقطع ذكرها تمامًا في الأيام الأخيرة. سألتها:

- وكيف عرفت؟

- (الفيسبوك) أرسل لي رسالة، تخيلي أن هناك أصدقاء لها كتبوا معايدات على صفحتها!

- ألا يعلمون أنها قد ماتت؟

- هذه المعايدات تتم بشكل آلي باقتراح من (الفيسبوك) فربما لم ينتهبوا لمن يكتبون.

- كل شيء هذه الأيام يتم بشكل آلي، خال من الروح، حتى المعايدات، يا خسارة.

تجاهلت نيللي كلامي (الكلاشيه) على قولها، واستمرت بالتصفح على هاتفها قبل أن تقول:

- غريب... هناك فتاة وضعت قلوبًا على كل منشورات سما.

- أليس هذا ما تفعلونه؟

- ولكننا لا نتفاعل مع المنشورات كلها دفعة واحدة وفي نفس اليوم، ومن حساب أنشئ حديثًا، صبيحة يوم الحادث تحديدًا.

تفكرت في ما قالته ابنتي ثم سألتها في فضول:

- ما اسم صاحبة الحساب؟

- اسمها (فينكس)

- ما هذا الاسم العجيب!

- إنه اسم إغريقي يا ماما ويعني العنقاء.

- العنقاء!

- إنها أسطورة إغريقية قديمة عن طائر عجيب يجدد نفسه ذاتيًّا. يعود للحياة ثانية كلما مات،

- وكيف ذلك؟

- يولد من رماد احتراق جسده.

- يعود ثانية للحياة؟ يا حبيبتي، يبدو أنها صديقة لسما أنشأت حسابًا جديدًا تأبينًا لصديقتها المغدورة.

- تعرفي يا ماما، سما كثيرًا ما رسمت هذا الطائر على صفحات كتبها، حتى إنه كان موشومًا على ذراعها.

قطع حديثنا صوت جرس الباب. قامت نيللي وغابت لعدة دقائق ثم عادت تقول في حنق:

- غريبة جدًّا، منذ متى كنت أستعير ملابس سما؟

- ماذا تعنين؟

- طنط ميرفت تسألني عن فستان سما الذهبي، تقول أنها فتشت عنه في كل مكان ولم تجده.

- فستانها الذهبي!

ردّدتُ حالمة وقد تراءت لي صورة سما وهي تتهادى مرتدية فستانًا ذهبيًّا ضيقًا دون أكمام في حنة ابنة أحد الجيران منذ عدة أشهر، كان فستانًا ذا تصميم بسيط يحاكي منحنيات جسمها النحيف، ولم

يكن يحتاج لأكثر من ذلك بسبب قماشه الذهبي السخي الذي كان مطرزًا تطريزًا دقيقًا قلما نجد مثله الآن.

انتبهتُ من تصوراتي على تبرم نيللي فقلت لها:

- لا تأخذي الأمر بشكل شخصي، السيدة لم تتهمك بشيء هي فقط تسأل.

- حسنًا...

قالتها مستسلمة ثم أضافت:

- ربما كانت سما ترتديه حينما خُطفت.

شعرت بتململ مفاجئ، كانت هناك ذكرى مشوشة تلح على عقلي. أغمضت عيني وحاولت التركيز في الصورة الغامضة التي أخذت تتشكل، ثم هتفتُ:

- الخيوط التي اشتبكت مع خشب الأرض.

- أية خيوط وأية أرض؟

- كانت ملونة، أحمر وأزرق.

- ماماااااا

- سما لم تكن ترتدي فستانها الذهبي ليلة الحادث. فيوم العزاء، وبعد أن نظفوا آثار الدم عن المدخل، لاحظت خيوطًا ملونة قد اشتبكت في نتوءات الألواح الخشبية للأرض، وفسر لي الأستاذ فتحي أنها آثار ملابس ابنته بعد أن جر المجرم جسدها.

- سما لديها ملابس رياضية مخططة بالأحمر والأزرق.

- في الأغلب كانت ترتديها ليلتها.

عقبت نيللي بسؤالها:

- أين ذهب الفستان إذن؟

- ربما وضعته ميرفت بالخطأ في الصناديق التي ذهبت للجمعيات الخيرية.

نظرت لي ابنتي قائلة في خبث:

- مثل هذا الخطأ لا يصدر عن طنط ميرفت، لو كنت رأيت عينيها وهي تسأل عنه، لأدركت ما يمثله لها.

قلتُ في خفوت:

- معها حق، قماش الفستان فاخر، وتصميمه البسيط يمكّن ميرفت من إعادة استخدامه كصدر فستان سهرة يناسب قياسها.

ثم أضفتُ متفكرة:

- ربما أقرضته نيللي لإحدى صديقاتها.

- أو ربما أخذته إحداهن يوم العزاء، ألم تلاحظي الفتاتين اللتين كانتا تحومان حول غرفة سما وتعبثان بأشيائها.

نظرتُ لنيللي التي لمعت عيناها بالإثارة وحاولتُ التذكر...

كانت هناك فتاتان بالفعل، إحداهما ممتلئة القوام، لا يمكن أن يناسب الفستان الذهبي قياسها، أما الأخرى...

قطعت نيللي حبل أفكاري بقولها:

- بالتأكيد سرقته صديقتها البيضاء النحيلة، ثم شعرت بتأنيب الضمير فأنشأت حساب (الفيسبوك) باسم العنقاء تأبينًا لسما وكنوع من الاعتذار.

قلتُ مستنكرة:

- تسرق فستان صديقتها المتوفاة يا نيللي!

- أظنها أقنعت نفسها أن سما لن تستفيد به بعد أن ماتت، وأنها -أي صديقتها- أحق به من زوجة أبيها التي كانت تكرهها...

هممت بالرد عليها إلا أنها أردفت:

- أو ربما كان المجرم الذي اقتحم المنزل وخطف سما مهووسًا جنسيًّا كما قلت لك سابقًا. إنه حمدي، أنا متأكدة، اتفق مع طنط ميرفت على التخلص من الفتاة ثم غافلها وسرق قطعة من ملابس سما كي تكون تذكارًا له.

- حرام عليكِ يا نيللي، إنك تتهمين الناس جزافًا دون دليل...

- جزافًا كيف يا ماما، ألا تذكرين الهمس المريب الذي دار بين طنط وحمدي يوم العزاء؟ وبياته لديهم ليلتها.

- ماذا؟ وهل بات ليلتها؟

- نعم...

سألتها في لهفة:

- أمتأكدة أنت؟

أجابتني وقد ضيقت عينيها مستريبة لهفتي:

- لقد رأيته من الشرفة وهو يدخل العمارة ليلًا. وسمعت طنط ميرفت تفتح الباب وترحب به.

تذكرتُ في غضب ميرفت وابتسامتها الصفراء حينما تهكمت مني قائلة: دواء جديد.

تلك الحرباء! تبًّا لها، سأنتقم منها يومًا ما...

لم أكن أتوهم حينها إذن. ولكن ماذا كانوا يقولون؟ أدركتُ في حنق أني قد نسيت كل شيء عن الأمر!

تركتُ نيللي وذهبتُ إلى حجرتي أعصر عقلي محاولة التذكر: ما الذي قاله حمدي لميرفت ليلة العزاء؟

ثم بزغ في مخيلتي سؤال آخر:

ترى... أين اختفى الفستان الذهبي؟

*

امتدّت يد أنثوية، ورفعت فستانًا ذهبيًّا برفق من على أحد المسامير الصدئة التي تناثرت على الحائط. وضعت الفستان على جسدها ثم تمايلت به مدندنة لحنًا هادئًا. بعد لحظة، أدركت حانقة استحالة الاستمرار بسبب أنغام موسيقا المهرجان الصاخبة التي تسللت إلى الغرفة من مذياع الغرفة المجاورة.

توقفت عن الحركة ونظرت لانعكاس وجهها على قطعة مرآة مكسورة.أسعدها توهج بشرتها إثر الضياء الذهبي الذي عكسه الفستان على ملامحها فابتسمت.

تأملت نفسها قليلًا، ثم مسدت الفستان وأعادته برفق إلى مكانه على الجدار.

***

- 29 -

الجرح

كنتُ في غرفتي أفكر في الفستان الذهبي الجميل حينما دخل علي زيد يئن،

- مالك يا بني؟

- يدي.

نظرتُ إلى حيث أشار فوجدت كف يده أحمر اللون ملتهبًا، لمسته فوجدته دافئًا وبه تجمع لسائل ما. امتقع وجهي وأنا أدرك أن جرحه البسيط قد التهب، وتذكرتُ عشرات القصص المفجعة عن الغرغرينا وبتر الأطراف.

- فاااااااضل.

صرخت عليه بأعلى صوتي فأتاني مهرولًا، قلت له وأنا أرتدي ملابسي:

- الولد كفه ملتهب، يجب أن نذهب به إلى الطوارئ على الفور.

نظر إليّ زيد في هلع ثم قال:

- لم يعد يؤلمني يا ماما.

لم أكن في حال تسمح بالمناقشة، اقتربتُ منه وأنا ألف طرحتي على رأسي، احتضنته وقبلت جبهته قائلة:

- لا تخف.

بعد نصف ساعة كنا في طوارئ إحدى المستشفيات القريبة والطبيب يفحص يد زيد، بينما امتلأت عينا طفلي بالدموع دون أن يتكلم. طمأننا الطبيب قائلًا:

- لقد أتيتم في الوقت المناسب، سنقوم بفتح الجرح وتنظيفه وتضميده، سيكون بخير ولكن يجب عليه الالتزام بجرعات المضاد الحيوي.

تنفسنا الصعداء أنا وفاضل برغم الرعب الذي تجلى في عينَي زيد عقب عبارة «فتح الجرح وتنظيفه». ولكن، وبرغم صراخه وتشنجاته، مر كل شيء بسلام. وبعد ساعتين كنا في السيارة متجهين إلى البيت.

سألتُ زيد وأنا أحاول التذكر:

- ما الذي جرحك؟ برطمان النوتيلا أليس كذلك؟

- لا، لم تكن النوتيلا، بل صورة زفاف طنط وأونكل، ألم أقل لك؟

انتصبت قرون استشعاري!

- طنط وأونكل من؟ وأية صورة؟

- طنط ميرفت وأونكل فتحي، صورة زفافهما التي كانت في الطرقة، طنط أنزلت صورة سما من وسط الصالة، وطلبت مني الإتيان بصورة الزفاف كي تعلقها مكانها.

- ووقعت منك؟

- لا لم تقع، كانت أصلًا مكسورة، ولكنني لم أنتبه لذلك، كانت القطع متماسكة برغم الكسر حتى رفعتها من مكانها فتخلخلت قطعة زجاج من مكانها وجرحتني. سال الدم من كفي، فأوقفته طنط بقليل من البن.

بن! جرح ابني أنا يتم علاجه بالبن؟ قلت في غيظ:

- كيف يجرؤون...

بينما تدخل فاضل قائلًا في ارتياب:

- أمتأكد أنك لم تتسبب في كسرها؟

أجاب زيد بصوت مكتوم وهو على وشك البكاء:

- صدقني يا بابا، كانت مكسورة والله.

- غريبة.

قالها فاضل وأنا أزغر له في مرآة السيارة كي لا يستثير الولد أكثر، يكفيه ما مر به في المستشفى. رفع فاضل كتفيه وأنزلهما في استسلام وبدأ النوم يتسلل إلى عيني زيد. حاولت تذكر آخر مرة رأيتُ فيها تلك الصورة... كان يوم العزاء، نعم أنا متأكدة، كانت لا تزال معلقة بطرقة المدخل وأظنها كانت مكسورة بالفعل حينها، لقد تذكرت، رأيت الكسر بعيني يومها ولكن عقلي كان مشغولًا فلم يستوعب ما رأيت. وبعدها انتابني شعور غريب بأني قد رأيت شيئًا في غير موضعه ولكنني لم أنتبه أنها الصورة!

*

وصلنا البيت ووضعت زيد في فراشه. لم أستطع أمام وجهه الشاحب إلا أن ألوم نفسي، كيف لم أتابع جرحه وأتأكد من أنه اندمل؟هل عدتُ لشرودي ثانية؟ هل فقدت شغفي بعد خروج التطبيق من حياتي؟ قررتُ أنني يجب -وبسرعة- أن أجد بديلًا يشغلني.

دخلتُ الفراش وتدثرتُ بغطائي الخفيف ونظرتُ إلى السقف أفكر في الصورة المكسورة...

ترى ما الذي تسبب في كسرها، وكيف لم ينتبه لها أحد حين كُسرت؟

لو كان انتبه لها أحدهم في الوقت المناسب لكان زيد بخير حال الآن.

بدأ جفناي يغلقان وشعرت أنني على شفا النوم حينما تذكرتُ فجأة ما سمعته ليلة الحادث:

«أكرهكم»

وصوت زجاج يتهشم...

***

- 30 -

سر الصورة المكسورة

اعتدلتُ في الفراش، وبدأتُ أتذكّر...

«أكرهكم»

لقد سمعتُ تلك الكلمة أيام التطبيق وظننتها أضغاث أحلام.

فهل لم تكن كذلك؟

كانت منتصف ليلة العيد، بعدما عدنا من زيارة طنط سميرة!

حاولتُ تركيب قطع اللغز في خيالي تمامًا مثلما يفعل زيد بقطع ألغازه المصورة.

استرجعتُ الكلمة مرارًا وتكرارًا.

الصوت... والنبرة المصاحبين لها...

لقد كانت سما. وفي الأغلب هي لم تنطق بها، وإنما اجتمعت عليها مشاعرها حينها، فنقلها لي التطبيق كما كان يفعل مع الأفكار التي تحمل شحنة مكثفة من المشاعر.

نبرة الفتاة كانت مليئة بالكراهية والازدراء، مشاعر متوافقة تمامًا مع الكلمة.

ولكنها غير متوافقة مع وجود خطر قاتل بجوارها.

فحسب التوقيتات التي استنتجتها الشرطة، المجرم كان موجودًا بالفعل حينما كسرت سما اللوحة، غريب!

ألم يجدر بها أن تكون خائفة، بل مرعوبة؟ لا أن تفكر فيمن تكره، وتسعى للانتقام منهما عبر كسر الصورة التي تجمعهما معًا.

كان هناك شيء ما لا يستقيم مع المنطق السليم. ترددتُ حينها فيمن أستشير؟

وفيما بدا وكأنه توارد أرواح، سمعتُ صوت طرقات خافتة على باب غرفتي الغارقة في الظلام.

- ادخل.

طلّت رأس صغيرة من الباب ومن ورائها ضوء الطرقة الذي طمس معالمها، لم أتبين أهي نيللي أم زيد حتى سألتني:

- هل أنت مستيقظة؟

- نعم، تعالي.

قلتها وأشعلتُ النور، فدخلت نيللي ممسكة بكتاب، وكانت شاحبة الوجه!

قليلة هي المواقف التي تؤثر على ابنتي، لذلك توترتُ..

- انظري.

قالتها وهي تمد لي يدها برواية إنجليزية ضخمة ذات غلاف جلدي بني وعنوان ذهبي طويل. سألتها في ارتياب:

- ما هذه؟

- رواية من روايات سما، كانت في الصندوق الذي أعطته لي طنط ميرفت.

قالتها برهبة غير مبررة، ثم أشارت بإصبع مرتجف قائلة:

- اقرئي هذه الفقرة.

نظرتُ إلى الصفحة التي انثنى طرفها، وتم التخطيط تحت بضعة سطور منها بقلم رصاص.

قرأت في سرعة فامتقع وجهي وتصاعدت دقات قلبي والحقائق تتبلور أمام عقلي. سألتُ نيللي بصوت خرج مني مبحوحًا:

- هل تظنين أنها...

- نعم يا ماما.

- ولكن كيف؟ ومن أين أتت كل هذه الدماء؟

- بنفس الطريقة المكتوبة في الرواية هنا.

قالتها وهي تقلب بضع صفحات قبل أن تشير لفقرة أخرى، قرأتها ثم قلت لنيللي بصوت أجش:

- أين الجدول الذي أعددته؟ أحضريه.

عادت به نيللي على الفور، فبدأت أراجعه معها وقد طار النوم من عينيّ...

لم يكن التطبيق مخطئًا ليلتها، ولم تكن سخونة المكواة هي السبب في تغير الألوان، بل كانت الحقيقة هي السبب. الحقيقة التي انسجمت تمام الانسجام مع فقرات الرواية التي خططت تحتها الفتاة.

***

- 31 -

هناك

أَخذَت النفس الأخير من سيجارتها ثم أطفأتها، وقامت تلملم قطع ملابسها المتناثرة في أرجاء الحجرة وارتدتها كيفما اتفق قبل أن تقترب من الشاب العشريني النائم وتهزه برفق قائلة:

- استيقظ، لقد تأخرت على العمل.

سألها بعينين ناعستين:

- كم الساعة؟

- العاشرة...

انتفض الشاب جالسًا على المرتبة وصاح في هلع:

- ماذا؟ العاشرة؟ هذه هي المرة الثالثة تأخير هذا الأسبوع، سيفصلونني من العمل لا محالة.

أشاحت بيدها قائلة باستهتار:

- ستجد غيره، ثم إن مهنة التمريض مهنة متعبة، يمكننا جني الكثير من المال بطرق أسهل وأسرع.

- الآن لا تعجبك مهنتي؟ لولاي لم تكوني قادرة على سحب كميات كافية من الدماء بشكل منتظم، ولا الاحتفاظ بها طازجة حتى الوقت المناسب.

أدركت أنها أغضبته فاقتربت منه تداعب خده بأناملها النحيلة وهي تقول في دلال:

- أتعلم أنك تبدو أكثر وسامة حين تفقد أعصابك؟

قالتها ثم رفعت شعرها المنسدل على وجهها كي تضع سيجارتها الخامسة لهذا اليوم بين شفتيها وتشعلها. بدا أنها تذكرت شيئًا فقالت له في آلية بددت دلالها كأن لم يكن:

- لا تنس دفع إيجار الغرفة اليوم، ونريد سجائر وبيرة وأي شيء نأكله.

نظر إلى ركن الحجرة حيث تكومت الزجاجات الخضراء الفارغة وقال لها:

- لقد أسرفتِ في الشرب والتدخين.

أجابته في سخرية:

- وماذا كنت تنتظر مني؟ أن أشرب سيجارة واحدة في اليوم خلسة، أو أن أضطر لمغافلتك مثلهم كي أختلس رشفتين في ركن الشرفة؟ هذا العهد قد ولى يا حبيبي.

لم يكن يحتاج لسماع تصريحها هذا، لقد رآه في عينيها الواسعتين منذ اللحظة الأولى التي غادرا فيها شقتها حاملين معهما ما خف وزنه وغلا ثمنه.

*

قام يوسف واغتسل في الحوض الصغير الموجود بركن الحجرة، ثم فتح الباب كي يقضي حاجته في الحمام المشترك بين الغرف، فنادته في تردد:

- جو...

توقف على الباب ونظر باتجاهها وقد استغرب ترددها فقالت:

- أحضر لي اختبار حمل من الصيدلية.

شحب وجهه وسألها في هلع:

- ماذا؟ كيف حدث ذلك؟

أجابته بشراسة لم يعهدها:

- وماذا كنت تتوقع؟ حب وعلاقة دون مسئولية!

أراد أن يجيبها بأن هذا هو عين ما توقع...

ألم تكن هي من أغرته بمعسول الكلام، وترجته بعيونها الواسعة ودموعها التمساحية كي ينقذها من براثن زوجة أبيها الشريرة. أليست هي من أقسمت أنها ستكون جارية تحت قدميه تنفذ كل أوامره إن ساعدها في اصطناع مشهد موتها كي يهربا معًا دون أن يقتفي آثارهما أحد.

وماذا جنى هو؟ انصاع لها ليفيق ويجد نفسه عبدًا منساقًا وراء شهواتها وطلباتها التي لا تنتهي.

لقد تبخرت كل رقتها وضعفها منذ اللحظة التي غادرا فيها معًا العقار رقم 47 في حي منشية البكري مستخفيَين بالظلام في تلك الليلة المشؤومة.

نظر إلى وجهها الشاحب الذي فقد براءته، وعينيها اللتين ازدادتا غورًا بسبب السهر وأشياء أخرى، فأدرك أنها لحظة الفراق...

إن لم يتخلص منها هو، ستكون نهايته وشيكة على يديها.

قال لها في عجالة:

- سنتكلم حينما أعود.

وقد أقسم في سره ألا يعود.

خرج من الغرفة، وعد الجنيهات القليلة في جيبه. نادته صاحبة البيت قائلة بنبرة خشنة:

- الإيجار.

- مساء.

قالها ثم اتصل بالمشفى حيث يعمل وأبلغهما باستقالته، واتصل بأخيه في الأقصر وأخبره أنه قادم في إجازة. ثم اتصل بصديقه المقرب قائلًا:

- سأختفي لبضعة أيام في البلد فلا تخبر أحدًا بمكاني مهما حدث.

- وفتاتك؟

- هذه بالذات لا تخبرها، لقد انتهى أمرنا معًا.

- بهذه السرعة؟

- لن أدعها تورطني في مصيبة جديدة، فلتجد ضحية أخرى تورطها معها، أما أنا فسأختفي.

أنهى يوسف المكالمة وهم بالتخلص من شريحة هاتفه، ولكنه عوضًا عن ذلك أجرى مكالمة أخيرة، ثم كسر الشريحة واستقل الحافلة باتجاه محطة مصر عازمًا ألا يعود، في المستقبل القريب.

أما هي،

فنظرت صوب الفستان المعلق على الحائط وسرحت...

كان يوسف قد حذرها من أخذ أي من أغراضها الشخصية كي لا ينكشف أمرها، إلا أنها لم تستطع مفارقة الفستان، الشيء الوحيد الباقي لها من أيامها الحلوة البعيدة.

أخرجت من محفظتها صورة فوتوغرافية صغيرة بهتت ألوانها، توسطتها سيدة شابة مبتسمة ترتدي فستانًا ذهبيًّا. تأملت نظراتها الطيبة الدافئة، وبكت...

كانت صورة والدتها يوم خطبتها، وقد احتفظت الأم بفستانها لسنوات كي تهديه لابنتها حينما تكبر ولكن القدر لم يمهلها.عادت الأم إلى خالقها، فاحتفظت الابنة بالفستان وخاطت من قماشه فستانًا عصريًّا على قياسها. كانت كلما ارتدته شعرت وكأن أمها تحتضنها بذراعيها اللدنتين الحنونتين.

أعادت الصورة إلى مكانها قبل أن تفسدها دموعها المنهمرة وتمتمت في حزن:

- سامحيني يا أمي، لن أستطيع ارتداءه ثانية، فأنا لم أعد أستحق حضنك الطاهر.

وفجأة انتابتها حالة من الهياج فبدأت تصرخ وتبعثر محتويات الغرفة، ثم أمسكت بالفستان وأخذت تمزقه بعنف، بينما سال كحل عينيها الكثيف ليحيل وجهها وفستانها إلى سواد.

***

- 32 -

الأطياف الكاشفة

راجعنا أنا ونيللي الأطياف والتحركات في الجدول...

كل شيء سقط في مكانه الصحيح أخيرًا.

قلت لنيللي:

- حان الوقت لإبلاغ...

قاطعتني في حماس:

- الشرطة.

- أبيكِ... لإبلاغ أبيك، مالنا نحن وما للشرطة؟!

ظهرت خيبة الأمل عليها ولكنني تجاهلتها وسحبتها من يدها نحو غرفة المعيشة، حيث كان فاضل سهران. وما أن رآنا حتى امتعض وكأنه شعر برياح وجع رأس لا يشتهيه. قدمت له نيللي الرواية قائلة له:

- اقرأ يا بابا.

قرب رأسه من الصفحة المفتوحة ثم أبعدها ثانية قائلًا في تأفف:

- الخط صغير جدًّا.

- أأحضر لك نظارة القراءة؟

أجابها في نفاد صبر:

- وإن قرأت، لن أفهم إنجليزي الروايات هذا، هل يمكن أن تلخصي لي الأمر؟

بدأت نيللي تقرأ وتترجم له، وعيناه تزداد اتساعًا مع كل كلمة، حتى أنهت نيللي قراءتها فقال في جدية وقد اكتسبت نبرته اعترافًا بخطورة الموقف:

- افتحي الفيديو الذي سجله التطبيق ليلة الحادث، أريد أن أتأكد من شيء.

انتابت نيللي نوبة إضافية من الحماسة فوصّلت هاتفها بشاشة التلفاز الكبيرة وشغّلت الفيديو وهي تشرح ما يظهر على الشاشة وكأنها مرشدة سياحية تشرح فعالية الصوت والضوء للسائحين:

- ها هو طيف سما يتأرجح بين الرمادي والأسود قبل أن يظهر المجرم، كانت تشعر بالملل والقلق، ثم ها هو طيف المجرم الأسود يظهر عن الباب، هو الآخر كان يشعر بالقلق. اقترب طيفها من الباب، بعدها تحول الطيفان إلى الأخضر.

علّقتُ أنا قائلة:

- لقد فرحا باللقاء، ثم ها هما يتحولان إلى الوردي، سما لم تكن فقط تعرفه، بل كانت تحبه!

هتف فاضل:

- لقد عادا إلى الأسود ثانية.

- طبيعي، لقد كانا قلقين ألا تنجح خطتهما الشيطانية.

أكملت سما:

- لقد تحولا من الأسود للأزرق، بدأ الخوف يدب في قلبيهما، بعدها تحول الطيفان إلى الأزرق الفاتح.

قاطعتها قائلة:

- بل فيروزي.

- لقد تغلّبت عليهما مشاعر الحماسة.

- انظرا، لقد تحولا من الفيروزي إلى البرتقالي فجأة.

أمعنت النظر، لا ليس كلاهما، بل أحدهما تحول إلى البرتقالي بينما الآخر إلى الذهبي.

- هذه هي اللحظة التي كسرت فيها سما صورة زفاف فتحي وميرفت، واحتار المجرم كيف يتصرف إزاء ما فعلت. فلو أن أحدًا قد أمعن التفكير في أمر الصورة المكسورة لربما انكشف أمرهما.

تابعنا الطيفين وهما يتبدلان في سرعة شديدة بين الألوان المختلفة، فتحول طيف سما من البرتقالي إلى الأحمر والمجرم من الذهبي إلى الأسود، وبعدها انقلب الطيفان إلى الأزرق النيلي، وعند خروجهما من باب الشقة تحول فجأة أحد الطيفين إلى الأخضر الزيتوني قبل أن يبتعدا حتى خرجا من نطاق التطبيق. كنتُ قد نسيت إلام يرمز الأخضر الزيتوني، فذكرتني نيللي:

- يرمز لتأنيب الضمير، لقد شعر أحدهما بتأنيب الضمير مع لحظة الهروب، ترى من منهما؟

لم أجد إجابة لسؤالها فظل معلقًا فوق رؤوسنا حتى تنحنح فاضل قائلًا:

- يبدو أن الفتاة قد قلدت خطة بطلة الرواية بحذافيرها...

- هذا صحيح، والآن ماذا سنفعل؟

سألته نيللي وهي تعقد ذراعيها أمام صدرها في تحدٍّ، فأجابها فاضل:

- نحن لسنا متأكدين من شيء...

- ماذا!

صرخت نيللي في غضب، فتدخلتُ قائلة:

- فاضل، أنا متأكدة.

خرج صوتي صارمًا حاسمًا استغرب له فاضل، فأردفتُ:

- أنت رأيت كيف خططت الفتاة الفقرات التي تصف ما حدث، كما رأيت الأطياف التي تؤكد تحركاتهما ومشاعرهما حين وقع الحادث.

لم يبدُ أنه تأثر بما قلت فألقيتُ ببطاقتي الأخيرة:

- وبالمناسبة، ميرفت تعلم...

شحب وجه فاضل وهو يسألني:

- ماذا تعنين؟

- لقد أخبرها حمدي أنه قد رأى سما، لقد سمعتهما في الشرفة ليلة العزاء، ولكن ميرفت نفت الأمر برمته فظننتُ أنني كنت واهمة وصدقتها ونسيت كل شيء عن الأمر، حتى أخبرتني نيللي أن حمدي قضى ليلة العزاء في بيت ميرفت.

- حمدي؟

- نعم، لقد رأى حمدي سما ليلة الحادث، يبدو أنه كان يريد استغلال وجودها وحدها في المنزل فأتى بعد أن أسدل الليل أستاره فرآها تهرب مع الشاب. وحينما أخبر ميرفت بذلك نهرته. تلك المرأة القاسية فضلت أن تظل ربيبتها في الشارع كي تتخلص منها ويخلو لها الجو.

- صفاء، حتى وإن كنتِ محقة في تحليلك لما سمعتِ، ميرفت لن تعترف بذلك، فهذا سيعرضها للمساءلة القانونية، ثم إنها بالتأكيد ظنت أن كتمان الأمر هو الخيار الأفضل للجميع.

أصابتني عبارة فاضل بشعور «ديجافو» مفاجئ، لقد سمعتها مؤخرًا في مكان ما وتركت لدي انطباعًا غامضًا بالحيرة حينها.

أغلقتُ عينيّ محاولة استرجاع الموقف الذي سمعتها فيها، عصلج عقلي في البداية ثم عادت لي الذكرى دفعة واحدة...

تذكرتُ إجابتها المبهمة حينما قلت لها في مرارة أن المجرم قد أجهز على سما، فأجابتني أن الكتمان هو الخيار الأفضل للجميع...كيف لم أفطن لعبارتها تلك في حينها!

فتحت عينيّ وابتسمتُ في ثقة قائلة لفاضل ونيللي:

- لدي شاهدة لا يمكن دحض شهادتها.

***

- 33 -

الشاهدة الخفية

أصابت عبارتي كل من فاضل ونيللي بالدهشة، تبادلا النظرات الحائرة ثم نظرا نحوي في فضول، تراقصت ابتسامة خبيثة على شفتيّ وتركتهما إلى البهو حيث الهاتف الأرضي.

اقتفت نيللي خطواتي قائلة:

- نحن بعد منتصف الليل.

- الشاهدة التي سأستعين بها معتادة على السهر.

- من؟ صديقة لسما؟

هززتُ رأسي بالنفي، في الحقيقة لم أكن متأكدة أنها ستكون مستيقظة، ولكني عوّلت على قولها أنها كثيرًا ما تصاب بالأرق وتسهر حتى الفجر. أدخلت رقمها وانتظرتُ. رنة، اثنتين، ثلاثًا... هممتُ بأن أغلق الخط ولكنها رفعت السماعة في اللحظة الأخيرة:

- آلو

الآن، وأنا أسترجع ما حدث كي أحكي لكم، أجد أن مكالمتي كانت خالية تمامًا من اللياقة واللباقة، فبالإضافة إلى الموعد غير اللائق، لم أستهلها بأية عبارة تقليدية وإنما سألتها من فوري:

- هل رأيتِ سما؟

- من؟

- الفتاة التي قتلت.

- من أنت؟

- أنا صفاء، هل رأيتِ سما بعد ليلة الحادث.

- لا.

نزلت عليّ إجابتها كجردل ماء مثلج في عز الشتاء، فقلت لها بصوت ضعيف:

- ولكنك قلتِ...

قاطعتني مصححة:

- لم أرها بعد الحادث، بل ليلة الحادث.

- هل كانت حية؟

- طبعا كانت حية..

- ولكن كيف لم تخبري أحدًا؟ كيف لم تحاولي إنقاذها؟

- كالعادة... تتكلمين كثيرًا وتلاحظين قليلًا... لا أمل..

(تراك)

أغلقت الهاتف في وجهي. احمرّت وجنتاي وقد تحلق حولي نيللي وفاضل ينتظران ما ستسفر عنه المكالمة. تهاويتُ على أقرب مقعد لي متمتمة في خفوت:

- أنا لا أفهم شيئًا أبدًا.

قالت نيللي في لهفة:

- كلميها ثانية، لا تستسلمي.

ثم أتبعت كلامها بالفعل فقامت بطلب رقمها ووضعت السماعة على أذني، هذه المرة ردت على الفور:

- ماذا تريدين؟

- هل رأيت سما حية فعلًا؟

- نعم رأيتها تخرج مع شاب غريب من مدخل العمارة متخفية تحت جنح الظلام قبل الفجر مباشرة.

- وهل أنت متأكدة أنها سما؟

- نعم، فبرغم أنها كانت ترتدي عباءة سوداء فضفاضة وطرحة تخفي بها وجهها، إلا أنني عرفتها من حذائها الفضي ذي السيور، مميز جدًّا كما لا بد وأنك لاحظتِ.

- ولكن لماذا لم تتكلمي حينها؟

- حينما رأيتها لم أكن أعلم أن الأمر فيه دماء أو سرقة، ظننتها ستلهو مع الشاب قليلًا ثم تعود قبل عودة أسرتها ولم أرغب في فضحها في الشارع.

- وحينما اكتشفوا الدماء؟

- عندئذ شككت في نفسي ولم أعد متأكدة، هل رأيتها فعلًا؟ كذبت عينيّ بسبب مشهد الدماء المخيف. لم أستطع التفوه بما رأيت، لم يكن ليصدقني أحد. كما أنني قلت لنفسي إن أرادت أن تهرب، فما الفائدة من إعادتها بالغصب؟ فلتتحمل نتيجة اختياراتها هي لم تعد طفلة، إما أن تعرف قيمة البيت الذي سكنته والأب الذي أحبها، وإما أن تحتضنها الشوارع إلى الأبد.

استغربتُ منطق الحاجة القاسي فصمتُّ، أردفت وكأنما قرأت أفكاري:

- تظنينها قسوة، ولكنها خبرة. خبرتي في الحياة علمتني أن مثل تلك الفتاة لن ينصلح حالها إلا حينما ترتطم بالقاع، فإما أن تدرك الحقيقة قبل فوات الأوان وتنقذ نفسها وتعود طواعية، وإما أن تظل في القاع إلى الأبد. كان اختيارها وليس اختياري...

*

أنهيت مكالمة الحاجة فوقية مدهوشة من منطقها. لم تمهلني نيللي فعاجلتني:

- ما هي الخطة؟

أجابها فاضل:

- النوم... والصباح رباح.

ردت حانقة:

- هذا الأمر لا ينتظر للصباح، لا بد أن نبلغ الشرطة... الآن.

أجابها فاضل قائلًا في حزم:

- لا، غدًا صباحًا سأمر على قسم الشرطة قبل ذهابي للعمل. سأبلغهم بما نعلم باستثناء طبعًا أمر الأطياف. وسأريهم الفقرات المظللة من الكتاب.

- ولكن هذا اكتشافي أنا، أريد الذهاب معك.

- مستحيل.

بدأت نيللي تدبدب في الأرض من الغضب، فتركتها تصفي حساباتها مع أبيها ولذتُ بغرفتي أتفكر في كل المفاجآت التي توالت علينا.

وأتساءل...

ترى ما الذي سيأتي به الغد؟

***

- 34 -

النهاية

صباح اليوم الأخير من حكايتي...

استغل فاضل نوم نيللي، وسحب الرواية من تحت وسادتها في خفة ثم أخبرني أنه سيمر بالشرطة في طريقه للعمل وخرج.

بعدها بأقل من ساعتين استيقظت نيللي، عرفت ذلك من صوتها الغاضب وهي تصرخ:

- أين الرواية؟

قبل أن أجيبها، تعالى صوت رنين هاتفي، كان فاضل، خير اللهم اجعله خير...

- آلو

- صفاء، فتحي هاتفني يريد مني الحضور على الفور من أجل سما، ما الذي حدث؟

- لا أعرف، هل مررت بالشرطة وأخبرتهم بالأمر كما اتفقنا؟

- نعم، ولكن بدا عليهم عدم التصديق، بل والاستخفاف بما قلت. لا أظن مكالمة فتحي لها علاقة بزيارتي للشرطة.

- ماذا قال لك إذن؟

- جاءته مكالمة من مجهول ولكنني لم أفهم من ارتباكه شيئًا، أنا في الطريق إليكم.

أنهيتُ المكالمة ونقلتُ فحواها باختصار إلى صاحبة زوج العيون المحدقة بي.

قالت نيللي في حماسة:

- سأفتح باب الشقة كي أشهد الأحداث من أولها.

لم أنهرها ولم أذكرها بمساوئ التجسس، فأنا أيضًا كنت راغبة في متابعة الأحداث.

مر الوقت ببطء حتى ظهر فاضل، وضع حقيبته بالمنزل وأسرع بالطرق على باب الأستاذ فتحي الذي خرج له على الفور وقد تهدل حاجباه واكتسى وجهه بالعرق. ما أن رأى فاضل حتى شد على يده بحرارة قائلًا:

- شكرًا لحضورك، لم أعرف من دونك أستأمنه وألجأ له.

تخطى فاضل عواطف الرجل الجياشة وسأله بأسلوبه العملي الجاف:

- ماذا حدث؟

- تلقيتُ اتصالًا هاتفيًّا من رقم مجهول، قال أن سما موجودة في حجرة بعزبة النخل، أرجوك تعال معي كي نحضرها.

أجابه فاضل بنبرة متعقلة:

- وهل صدقته؟ ما الذي يضمن لنا أن نجدها هناك؟ ربما يستدرجك شخص ما ليسرق هاتفك أو سيارتك.

- ولكن ابنتي، ربما لم تزل على قيد الحياة.

قال فاضل وهو يتحاشى النظر للرجل:

- أغلب الظن أنه شخص يريد استغلالك بشكل ما، فالكثيرون يعرفون الحكاية...

- هل تريدني أن أتجاهل الأمر؟ ماذا وإن كان صادقًا!

ثم استدرك قائلًا في مرارة:

- إن كنت خائفًا فلا بأس، سأذهب وحدي. لن أستطيع المغامرة بمصير ابنتي.

مد فاضل ذراعه ليمنعه من النزول قائلًا:

- انتظر، الأفضل إبلاغ الشرطة، ونطلب منهم أن يرسلوا معنا قوة تفتش المكان.

بدا على الأستاذ فتحي الاقتناع بصوت العقل فأومأ برأسه في استسلام. اتصل فاضل بضابط التحقيق الذي ترك نمرته المباشرة مع الأستاذ فتحي وأخبره بالأمر، كما ذكّره من طرف خفي بالمعلومات التي أدلى بها هو صباحًا في القسم، فوعدهم الضابط بالحضور. تركنا بابَي الشقتين مفتوحين في شكل من أشكال التضامن، بينما انتظر فاضل مع فتحي في المدخل.

مرت ساعتان، فقد خلالهما فتحي أعصابه وأطنانًا من العرق، قبل أن يظهر ضابط التحقيق. وبعد تبادل عبارات قليلة، انطلق الرجلان مع الضابط وقوته نحو العنوان الذي تركه المتصل المجهول لفتحي.

هممتُ بإغلاق باب الشقة، عندما ظهرت ميرفت شاحبة الوجه واقتربت مني سائلة في قلق:

- هل تتوقعين أن يجدها؟

أجبتها وبدون مواربة:

- نعم.

- وهل ستعود؟ أعني إلى المنزل، هل ستعيش معنا مجددًا؟

لم أدرِ بمَ أجيبها، وهل أتعاطف معها أم أحنق عليها، فلم أجد سوى الصمت ملاذًا.

لم تنتظر إجابتي، بل جرت قدميها جرًّا إلى شقتها. تأملتها من الخلف، تهدل كتفاها وبدت وكأنها شاخت فجأة. كانت تعلم أن أسرتها أصبحت في مهب الريح.

*

لم يعد فاضل حتى المساء. حاولتُ الاتصال به مرارًا فوجدت هاتفه مغلقًا، وحينما عاد أخيرًا بدا الأسى ظاهرًا على ملامحه. انتظر حتى صرنا وحدنا ثم حكى لي ما حدث...

حكى لي كيف وصلوا بصعوبة للعنوان المطلوب وسط عشوائيات عزبة النخل، والذي كان مبنى بائسًا مقامًا بلا ترخيص هدمت الحكومة أجزاءً منه فبدا أقرب للأطلال.

حكى لي كيف اقتحمت قوة الشرطة المصاحبة لهما المبنى، فانفتحت أبواب غرفه المغلقة عن العشرات من قاطنيه يهرعون إلى الخارج، اشتركوا جميعًا في الوجوه الشاحبة والعيون الغائرة فبدوا من تخبط هروبهم وعشوائية حركتهم كنمل يهرب من بطش أقدام جنود سليمان.

بقيت غرفة واحدة مغلقة أشارت إليها صاحبة العقار وهي ترتجف.طرقوا بابها فلم يفتح لهم أحد، اقتحموها ليجدوا سما أمامهم وقد ازدادت نحولًا وشحوبًا. صدمتها رؤية أبيها فتسمرت في مكانها، وحين حاول الاقتراب منها أصابها هياج شديد وحاولت القفز من نافذة الغرفة، فأنقذوها في اللحظة الأخيرة فأخذت تقاومهم وتخمش وجوههم بأظافرها الطويلة المطلية بالسواد. لم يجدوا بدًّا من حملها على أكتافهم حملًا كي يخرجوها من الحجرة البائسة التي لاذت بها.

كان فاضل يتكلم بصوت حزين ورأس منكس، سألته في خفوت:

- وأين هي الآن؟

- لقد نصحتُ فتحي أن نذهب بها من فورنا إلى طبيب أمراض عصبية ونفسية، كنت أرى من الأفضل إيداعها مصحة حتى تسترد صحتها النفسية والجسمانية ولكن فتحي رفض.

- لماذا؟

- لا أعلم، فهو لم يبد أسبابًا. ربما خوفًا من الفضيحة، وربما خوفًا من المصاريف.

أضفتُ بصوت عميق:

- أو ربما لم يرد أن يصدق أن صغيرته صارت حطامًا.

- ربما...

عقّب بها في كآبة، ثم أضاف متأمّلًا:

- أتعرفين... مكالمة الاستغاثة كانت حقيقية.

- أية مكالمة؟

- تلك التي زعم فتحي أنه تلقاها من ابنته ليلة الحادث.

- لقد ظننت أنها مكالمة ملفقة.

- وأنا أيضًا، لكنها ويا للغرابة لم تكن كذلك، لقد اتصلت به فعلًا قبل هروبها.

- لماذا؟

- لقد سألها، فأجابته بابتسامة مريرة قائلة: لأني كنت متأكدة أنك لن تهتم ولن تأتي لتنقذني، فأجابها: ولكني أتيت.

- متأخرًا!

نظر لي فاضل مدهوشًا، وقال:

- هذا بالضبط ما عقبت به الفتاة: too late...

- إنها محقة.. لعل مكالمتها كانت محاولة أخيرة منها كي تتأكد من حبه لها، وربما كان عقلها الباطن يريده أن يلحق بها ويمنعها من الهروب...

- ربما...

سألته متوجسة:

- وهل عدتم بها إلى هنا؟

- لا، بل اتصلنا بخالتها في الإسماعيلية والتي وافقت مشكورة على استضافتها فترة حتى تتعافى.

- هكذا أفضل.

- لست متفائلًا، لقد قطعت الفتاة شوطًا طويلًا في طريق الفساد، لست أدري إن كانت عودتها منه ممكنة.

وافقته قائلة:

- لن تعود حتى تجد الحب غير المشروط، الحب الكافي لأن يحيط بها ويحتضنها ويعوّضها عن سنوات الرفض والتجاهل، ستظل تدمر نفسها ومن حولها بدافع من شعور عميق بعدم الاستحقاق. فهل سيستطيع الأستاذ فتحي أن يقدم لها ما تحتاجه من حب وقبول قبل فوات الأوان؟

ظل سؤالي معلقًا فقال فاضل بصوت أجش وكأنه يستقرئ المستقبل أو يتلو نبوءة ما:

- ستظل تلك الفتاة قنبلة موقوتة في أي مكان تذهب إليه، لن تتعافى حتى تتعافى...

تهدج صوته، ورأيت دمعة تلمع في عينيه.

لم أتمالك نفسي فوضعت ذراعي حول كتفه محتضنه، فوجئت به – فاضل الصلب دائمًا وأبدًا - يلين فجأة ويبادلني الاحتضان!

- أحبك.

- ماذا؟

- أحبك يا صفاء، أحبكم جميعًا.

لقد قالها!

لقد حظيتُ بلحظة وردية أخيرًا!

رقص قلبي ورفرفت جفوني...

نسيتُ كل شيء عن الفتاة وما نقول، وهممتُ باقتناص اللحظة التي انتظرتها طويلًا، ولكن...

«قليل البخت يجد العظم في الكرشة»

نادتني نيللي قائلة بصوت مبهور:

- ماما، ماما، ماما، ماما... تعالي بسرعة.

قطع صوتها حبل الوداد فاستعاد فاضل وقاره سريعًا وكأن شيئًا لم يكن. خرجتُ أنا إلى نيللي أمارس أقصى درجات ضبط النفس كي
لا أنتف رموشها. وجدتها ترفع لي هاتفها قائلة في صوت متهلل:

- انظري... تطبيق (التيك توك) يظهر أطواقًا ضوئية فوق رؤوس الناس كأنهم ملائكة، ولكل طوق لون مختلف.

سألتها متوجسة:

- أليس (فيلتر)؟

أجابتني والحماسة تتقافز في صوتها:

- لا يا ماما إنه خاصية في التطبيق تظهر لي وحدي، لقد تأكدت.

- لاااا ليس ثانية...